المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

تجليات الهوية

في مقامات ابن ماري البصري ت٥٨٩هـ

Manifestations of identity
In the Maqamat of Ibn Mary Al-Basri, d. 589 AH

بقلم الدكتورة

شيماء عمر محمد عبد الواحد

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية- كلية الآداب
جامعة المنيا- جمهورية مصر العربية

العدد الثالث (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تجليات الهوية في مقامات ابن ماري البصري ت٥٨٩هـ

شيماء عمر محمد عبد الواحد

قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة المنيا ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : Hebaomar378@yahoo.com

الملخص

يدرس هذا البحث نصا مقاميا، لم يعن به الباحثون من قبل ؛ وهومقامات ابن ماري يحيي بن سعيد البصري ت٥٨٩ هـ ، وتبلغ ستين مقامة ، عكست شخصيته المتميزة بكونه أديبا عربيا وطبيبا مسيحيا، والتمست الباحثة تميز مقاماته وهويتها الثقافية في أمرين: ظهور مسيحيته في مقاماته بالرغم من سطوة الثقافة الإسلامية العربية السائدة، وكذلك في توظيفه الطب وعلوم الأوائل، خلال مقاماته السردية ، القائمة على الكدية شأن مقامات الهمذاني ومقامات الحريري. ولذلك تم تحليلها تحليلا سرديا، يتبعه التأويل والكشف عن الدلالات الثقافية، مما يبين الهوية الثقافية الخاصة لهذه المقامات، ويكشف عن الأثر الشخصي ، والإضافة الخاصة لابن ماري في أدب المقامات السردية.

الكلمات المفتاحية: ابن ماري، النصرانية، الطب ، الأدوية والعقاقير، أديرة ، أنبياء بني إسرائيل.

Manifestations of identity
In the Maqamat of Ibn Mary Al-Basri, d. 589 AH

Shaima Omar Mohamed Abdel Wahed.

Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Minia University, Arab Republic of Egypt .

Email: Hebaomar378@yahoo.com

Abstract

This research studies maqāmāt, which researchers have not dealt with before. It is the maqāmāt of Ibn Mary Yahya bin Saeed Al-Basri, d. 589 AH, it amounts to sixty Maqamat. It reflected his distinguished personality as an Arab writer and Christian doctor. The researcher sought to distinguish his Maqamat and its cultural identity in two matters: the appearance of his Christianity in his Maqamat despite the dominance of the prevailing Arab Islamic culture. Also the application of his knowledge in medicine and the sciences of the ancestors , through the creation process of his narratives, which are based on kaddiyah, like the maqamat of al-Hamdhani and the maqamat of al-Hariri. Therefore, it was analyzed narratively, followed by interpretation revealing the cultural connotations, which shows the special cultural identity of these maqāmāt, and reveals the personal impact, and the special addition of Ibn Mary to the literature of maqāmāt's narrative .

Keywords: Ibn Mary, Christianity, medicine, medicines and drugs, monasteries, prophets in Judaism.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يحاول هذا البحث دراسة (تجليات الهوية في مقامات ابن ماري البصري ، دراسة سردية) ، وابن ماري هو الأديب أبو العباس يحيي بن سعيد الطبيب النصراني ، المتوفي ٥٨٩هـ ، الذي خلف لنا – ضمن تراثه الأدبي –ستين مقامة أحسن فيها وأجاد ، على حد قول ياقوت الحموي[١].

ويعني ذلك أن بحثنا الحالي يحاول الكشف عن الأثر الشخصي لابن ماري في مقاماته ، فمما لا شك فيه أن ابن ماري قد وجد أمامه – عند إبداع مقاماته – تراثا جما من أدب المقامات ، وأبرزه مقامات بديع الزمان الهمذاني ت ٣٩٨ هـ، ومقامات الحريري ت ٥١٦ هـ ، وكان متاحا له أن يتأثر بهما ، وأن يتناص معهما بشكل جزئي أوكلي ، فيستمد منهما أو أن يحاكيهما أو يناقضهما.

ولكنه كان متاحا له أيضا ومنشورا أمامه – قبل ذلك –التراث الأدبي العربي الذي تخرج عليه ، وامتاح منه كلا المقاميين السابقين (البديع والحريري) ، مما يجعل الكشف عن حقيقة شخصيته الفنية في مقاماته أمرا عسيرا.

ولذلك يقترح هذا البحث أن ينظر في حقيقة ابن ماري، وهويته الثقافية ، وما يميزه ، والملامح الرئيسة المميزة لشخصيته ، ويفتش عنها خلال مقاماته، وأثناء توظيفها الفني خلال بناءاته السردية للمقامة ، التي يستهدف هذا البحث تحليلها بوصفها نصوصا ، ويناسبها – في تصورنا – أن تحلل تحليلا سرديا ، يوضح تأثير تلك الملامح المميزة لشخصيته ، وكيف تجلت تلك العناصر الشخصية ؟ أو كيف تم توظيفها في المكونات أو الوحدات السردية للمقامة، التي تتمثل – في رأينا – على النحو الآتي:

- شخصية الراوي والفضاء الخاص به.
- شخصية البطل ، وكيفية التقاء الراوي به ، والفضاء الذي يظهر خلاله.

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ج ٦ ، ص ٢٨٣٥.

– العرض الأدبي الذي يقدمه البطل نثرا فنيا ، أو شعرا ، وقد يجاريه خلاله الراوي، في إطار المشابهات المتعددة بينهما، التي ترشح لعقد صداقة بينهما.

- حيلة المكدي التي يحتال بها البطل على جمهوره ، ويكدي عليهم.

- موقف التعرف ، الذي يفضح الراوي من خلاله أمر البطل ، ولكنه يستر عليه؛ وفق عقد ضمني بينهما.

- الفراق بين الراوي والبطل ، على غصب أورضاء.

ويلاحظ ندرة الدراسات السابقة ، التي درست هذه النصوص المقامية ، التي حققت بالعراق حديثا ، فلا نكاد نجد سوى ما يأتي؛ سوى ما قام به الباحثان لؤي سلمان راضي وعبد علي عبيد علي من عمل علمي عنوانه المقامة العراقية من نصوص المقامات المسيحية لابن ماري –دراسة وتحقيق ، ونشر في مجلة واسط للعلوم الإنسانية ، العدد ١٣ ، مجلد ٦ ، ٢٠١٠ ، ص ٤٥ –٦٤ .

واعتمدت في هذا البحث على نسخة محققة صادرة عن بيروت، الدار العربية للموسوعات ، بتحقيق وتقديم د عدنان كريم رجب المفرجي ، وعنوانها مقامات ابن ماري يحيي بن سعيد البصري نسبه حياته مكانته (ت ٥٨٩ / ١١٩٣) ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٩ م ، ١٤٤٠ هـ. وتم توثيق النصوص المقامية المحللة خلال البحث ، داخله ، أي عقب كل نص مقتبس من المقامات .

والله ولي التوفيق

الباحثة

التمهيد:

يحاول هذا التمهيد الكشف عن الملامح الخاصة التي تشكل الهوية المتميزة لابن ماري ، المعبرة عن كينونته المتفردة ، المغايرة لسواها[١] تمهيدا للبحث عنها، أوالتماسها في نصوص مقاماته.

وابن ماري هو" يحي بن يحي بن سعيد المعروف بابن ماري المسيحي من أهل البصرة : كان كاتبا، أديبا ، شاعرا ، عالما بالنحو واللغة ، متفننا، وكان يتكسب بالكتابة والطب ، ويمتدح الأكابر والأعيان، وصنف المقامات الستين، فأحسن فيها وأجاد ، وكانت وفاته بالبصرة سنة تسع وثمانين وخمسمائة"[٢]

وقال القفطي عنه هو" يحي بن سعيد بن ماري أبوالعباس، الطبيب النصراني، المعروف بالمسيحي، صاحب المقامات الستين ، عالم بالطب والأدب، ... وكان للمسيحي هذا معرفة للأدب سابقة ، وربما امتدح بالشعر ، أجلاء الواردين على البصرة ، وكان فاضلا في علم الأوائل ، وعلم العربية والشعر ، يرتزق بالطب والإنشاء، وصنف المقامات الستين، وأحسن فيها ، وتوفي بالبصرة لعشر بقين من شهر رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة " [٣]. وقال ابن تغري بردي ٨٧٤ هـ عنه أيضا : " أوحد زمانه في الطب والأدب ، له ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري ، وله شعر جيد " [٤] .

ولعل حاجي خليفة في كشف الظنون كان أول من أطلق عليها لقب المقامات المسيحية ؛ فقال : " المقامات المسيحية لأبي العباس يحيي بن سعيد بن ماري

---

(١) انظر المعجم الفلسفي ، تصدير إبراهيم مدكور ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، مجمع اللغة العربية ،١٩٨٣ ، مادة هو، مادة هو .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ج ٦ ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ص ٢٨٣٥.

(٣) الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، علق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، د.ت ، ج ٥ ، ص ٣٦٤ .

النصراني البصري الطبيب، مات في رمضان سنة ٥٨٩هـ ، نسج فيها على منوال الحريري" [١]

ولذلك عني به العلماء المحدثون من النصارى المعنيين بجمع تراثهم، مثل : الأب انستاس ماري الكرملي. وطالعها وعلق عليها بخط يده معنونا لها ومصنفا (المقامات النصرانية) [٢].

ونستنتج مما سبق أن الملامح الأساسية لشخصية ابن ماري البصري ، تتمثل فيما يأتي:

-إنه كان أديبا بارعا ، يقول الشعر، ويكتب النثر، ويقصد بهما وجهاء عصره ، ويتكسب بأدبه، ولكن هذا الملمح يعبر عن شخصية عامة ، تحترف الأدب ، وتتكسب به ، وإن كان ذلك التمكن من العلوم العربية ، وممارسة الكتابة بالفصحى شعرا ونثرا تؤهله لكتابة أعمال أدبية مثل المقامات.

-تصر المصادر التي ترجمت لشخصية ابن ماري على وصفه باحترافه الطب ، فقد ذكر ياقوت الحموي " وكان يتكسب بالكتابة والطب" ، وقال ابن تغري بردي " كان أوحد زمانه في الطب والأدب"،ووصفه حاجي خليفة بأنه " البصري الطبيب"، وبذلك نلاحظ إلحاح المؤرخين القدماء على وصفه باحتراف الطب ، والتكسب به ، فإذا كانت المعرفة بالأدب تميز الشخصية العربية في كثير من الأحيان، فإن المعرفة بالطب توجد على أضيق نطاق ، وتعد ملمحا مميزا لمن يشتغلون به ، فجل العرب أدباء وشعراء، لكن الأقل فيهم الاشتغال بمهنة الطب.

-كان مسيحيا ، حيث تصر المصادر القديمة أيضا على وصفه بالمسيحية أوالنصرانية، فميزه ياقوت الحموي بقوله : " ابن ماري المسيحي من أهل البصرة " ، وقال عنه القفطي" الطبيب النصراني... وكان المسيحي هذا يرتزق بالطب والإنشاء"، ووصفه ابن تغري بردي " ابن ماري النصراني" ، وذكر حاجي خليفة واصفا مقاماته " بالمقامات المسيحية."

---

(١) – حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق محمد شرف الدين ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان ، د.ت ،ص ١٧٩١

(٢) انظر لؤي سلمان راضي، عبد علي عبيد علي، المقامة العراقية من نصوص المقامات المسيحية لابن ماري، دراسة وتحقيق ، مجلة واسط للعلوم الإنسانية ، العدد١٣ ، ص ٤٧

وذكر محقق الكتاب د. عدنان كريم أن هناك تعليقا للأب انستاس ماري الكرملي على إحدى مخطوطات الكتاب يعنونها بقوله المقامات المسيحية ، ثم وجد على إحدى مخطوطات هذه المقامات بخط محدث وصفها ب " المقامات النصرانية "[١]، وعندما قام الباحثان العراقيان سلمان راضي وعبيد علي بتحقيق المقامة العراقية ونشرها منفردة في مجلة واسط للعلوم الإنسانية العدد١٣ ذكرا أنها " من نصوص المقامات المسيحية لابن ماري. "

ويدفعنا ما سبق إلى اتخاذ المسيحية ، واشتغاله بالطب ملمحين رئيسين يميزان شخصيته ، ويرجح ذلك لدينا:

- الارتباط التاريخي بين اعتناق المسيحية دينا ، واحتراف الطب مهنة.
- ماعرف من ولع العلماء المسيحيين – في الغالب – بترجمة علوم الأوائل كالطب والكيمياء فقد ارتبطت ممارسة الطب بترجمة كتب الأوائل : الإغريق وغيرهم ، عن السريانية واليونانية . [٢]

ويلاحظ أن ممارسة الطب واعتناق الديانة المسيحية مقترنان– غالبا – في تراثنا الإسلامي، ذكر ذلك مؤرخو الحضارة الإسلامية ، يقول آدم ميتز" ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال ، وكان قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء ،بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلا يهودا، في حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى ، وكان رئيس النصارى ببغداد وهو طبيب الخليفة" [٣]

---

(١) انظر ابن ماري ، مقامات ابن ماري ، تحقيق عدنان كريم رجب المفرجي، بيروت ، الدار العربية للموسوعات ، ط ١، ٢٠١٩ ، مقدمة المحقق ، ص ١٢

(٢) انظر حسن بحراوي ، الترجمة العربية من مدرسة بغداد إلى مدرسة طليطلة ،الرياض، كتاب المجلة العربية رقم ٢٣٩ ، ١٤٣٧هـ، ص ٢٧ .

(٣) آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ج ١ ، ٢٠١٣ ، ص ٦٥ انظر كليفورد بوزوروث ، وحسن نافعة ، ترجمة حسين مؤنس ، إحسان صدقي العمد، مراجعة فؤاد زكريا، العدد ٢٣٤ ، ١٩٨٨، عالم المعرفة ، الكويت ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ــ ص ١٤٥

فمن المشهور أن العرب منذ بداية تاريخهم في العصر الجاهلي ، قد اكتسبوا صناعة الطب – فضلا عن تجاربهم الخاصة – من الشعوب والأمم التي سبقتهم في طريق الحضارة ، خاصة الفرس والروم ، خلال رحلاتهم للتجارة وقد عرف طبيبهم في العصر الجاهلي الحارث بن كلدة الثقفي القرشي برحلاته إلى بلاد الفرس والروم. (١)

أما بعد الإسلام فكان أوضح تجل لذلك الارتباط بين المسيحية والطب والترجمة في العصر العباسي ؛ يذكر الأب جورج شحاته قنواتي " كان كسرى أنوشروان شديد الإعجاب بالثقافة اليونانية الرومانية ، فرحب بالفلاسفة الذين شتتوا عندما أغلق جوستنيان مدارس أثينا ، وحرص على أن تقوم في فارس مدرسة عظيمة على غرار مدرسة الإسكندرية ، فأنشأ جنديسابور ، وكانت مشهورة بخاصة في الطب الذي لم يكن يدرس نظريا بل عمليا ببيماريستانات كبيرة... وقد استشار في عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥م الخليفة المنصور رئيس أطباء بيمارستان جنديسابور وهوجورجيس بن بختيشوع حين دعاه إلى بغداد ، ومن ذلك الحين بقيت أسرة بختيشوع طوال ثلاث قرون ، ذات مكانة كبرى عند الخلفاء، فمنها كان أطباء الخلفاء ووزراؤهم " (٢)

فيبين قول الأب قنواتي أن الإسلام قد جاء وكانت هناك مدارس فكرية، فلسفية، علمية ، في العالم القديم ، منها مدرسة الإسكندرية ، ومدرسة جنديسابور، وكانت الأخيرة ذات تأثير كبير في معرفة المسلمين للطب ، عندما قرب إليه الخليفة المنصور أطباءها، ويلاحظ القرب المكاني بين مدرسة جنديسابور وبغداد.

ويذكر أيضا دي لاسي اوليري أنه " بعد أن بنى المنصور مدينة بغداد ١٤٨هـ/ ٧٦٥م استدعى طبيبا نسطوريا يدعى جورجيس بن بختيشوع من مدرسة جنديسابور ، فجعله طبيبا للبلاط ، ومنذ ذلك الحين ونحن نرى أن ثمة

---

(١) صدام جاسم محمد البياتي ، إسهامات العلماء في تطور علم الطب في بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي ، دراسة تاريخية ، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية ، ع٣ ، ٢٠١٨ ، ص ٧٣ .

(٢) جورج شحاته قنواتي ، المسيحية والحضارة العربية، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ، د .ت ، ص ٨٠.

سلسلة من الأطباء النساطرة المتصلين ببلاط الخليفة، والمكونين للمدرسة الطبية في بغداد... وشغل مكانه – بعده – تلميذه عيسى بن شهلة ، الذي ألف كتابا في العلاج ، ثم جاء بختيشوع بن جورجيس ليصبح طبيبا لهارون الرشيد ، أما جبرائيل الابن الآخر لجورجيس ، فقد كان أثيرا لدى هارون الرشيد ، فقد كتب كتابا في المنطق ، ورسالة للمأمون في الأغذية والأشربة ، وكتابا في الطب استند فيه على ديسقوريدس وجالينوس وبولس الأجيني ، ثم خلاصات طبية أخرى ، ورسالة في العطور، وكتبا أخرى" (١)

وارتبطت دراسة الطب بحركة الترجمة ، التي نشطت ابتداء من عهد الخليفة المنصور، وتولاها لديه المسيحيون النساطرة ، الذين يجمعون بين معرفة الطب والفلسفة وعلوم الأوائل ومعرفة اللغات القديمة، و" كان الخليفة المنصور هوالراعي الذي عمل الكثير لجذب الأطباء النساطرة إلى مدينة بغداد التي أنشأها، وكان الأمير الذي بذل كل ما في وسعه لتشجيع أولئك الذين كرسوا أنفسهم لإعداد ترجمات عربية للآثار اليونانية والسريانية والفارسية.

ولكن الأهم من هذا رعاية المأمون الذي أسس عام ٢١٧هـ / ٨٣٢ م مدرسة في بغداد على غرار المدرسة النسطورية ، وسماها بيت الحكمة ، وجعلها برئاسة يحيي بن ماسويه ت ٢٣٤هـ / ٨٥٧ م ، وقد نال كتابه في الطب المسمى بالحميات شهرة واسعة ، أما أهم ما أخرجته ؛ فهوما قام به تلاميذ يحيي وخلفاؤه وخصوصا حنين بن إسحاق العبادي ت ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م، الطبيب النسطوري الذي ترجم من السريانية أهم مراجع في الطب ، بالإضافة إلى أورغانون المنطق الأرسطي ، وقد عاونه في ذلك ابنه إسحاق ، وابن أخته حبيش ، وأعد حبيش ترجمات لأجزاء مما ألفه جالينوس وبقراط" (٢)، "أما العصر الذهبي للترجمة العربية فقد كان القرن الرابع الهجري ، والجدير بالذكرأنه قد اضطلع به النصارى

(١) دي لاسي أوليري ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، نقله إلى العربية إسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، د.ت ، د.ط ، ص ٩٧ . وانظر جان موريس فيبه ، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، نقله إلى العربية حسني زينة ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠، ص ٥٣ ، ٥٤.

(٢) اوليري ، المرجع السابق ، ص ١٠٠

السريان بالدرجة الأولى ، ومع هذا فإن عددا كبيرا من الترجمات قد تمت من اللغة اليونانية مباشرة ، منها ترجمات لأبي بشر متى بن يونس ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م" (١)

ويوضح القول الآتي للجاحظ الصورة النمطية التي شاعت في الدولة الإسلامية عن كون الطبيب لابد أن يكون مسيحيا ، يقول الجاحظ: " وكان أسد بن جاني طبيبا ، فأكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبئة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى في هذا الكساد؟ قال : أما واحدة فإني عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب ، والثانية واسمي أسد ، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبة ، أومراسيل، أويوحنا، وكنيتي أبوالحارث ، وكان ينبغي أن يكون أبوعيسى، أبوزكريا ، أبوإبراهيم ، وعلي رداء قطن أبيض ، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود، وأخيرا لفظي لفظ عربي ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور " (٢)

ويتبين مما سبق الارتباط بين اعتناق المسيحية والاشتغال بالطب، وكذلك ترجمة علوم الأوائل.

(١) دي لاسي أوليري، المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ٥٧

(٢) الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١، ص ١٠٢ .

الفصل الأول: تأثير الهوية المسيحية لابن ماري:

ونبتدئ من أجل الكشف عن الأثر الشخصي لابن ماري في مقاماته ، بالوقوف عند تلك ، التي تظهر فيها عناصر دينية ترتبط بالمسيحية ، وذلك من خلال التحليل السردي ؛ والكشف عن توظيفها في البناء السردي للمقامة:

المقامة الرومية ص٢٥٧:

وهي المقامة التاسعة والثلاثون من مقاماته ، ويمكن تتبع الأثر المسيحي في المقامة ، ونقف على التوظيف الفني له ، من خلال تحليلها سرديا على النحوالآتي:

- الراوي : ويلاحظ أنه يلزم اسما واحدا ، في كل مقامات ابن ماري ، وهويحي بن سلام ، وهوراوداخلي ، يروي عنه راوخارجي هوالذي يبلغنا ما قاله يحي بن سلام ، ويرد على النحوالآتي" حدث يحيى بن سلام قال ". فيمثل يحيى بن سلام الدرجة الثانية من الرواية ، لكن الذي يمثل الدرجة الأولى من الرواية هوراومجهول ، يحكي عن يحي بن سلام .

وعندما نتوقف عند الراوي المعلوم نلتمس الدلالات السيميائية للاسم ، نجد أنه يتناص ويذكرنا بالنبي يحيى عليه السلام ، وقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١)

وذكر النبي يحيى في الإنجيل ، وعرف بيوحنا المعمدان، وهوالذي عمد السيد المسيح عليه السلام في نهر الأردن؛ ووردت البشارة بمولده في الإنجيل على النحو الآتي : (وزوجتك أليصابات ستلد لك ابناً وأنت تسميه يوحنا وسوف يكون عظيماً أمام الربّ ولا يشرب خمراً ولا مسكراً ويمتلئ بالروح القدس وهو بعد في بطن أمه) (٢)

(١) [آل عمران: ٣٨ – ٤٠].وورد ذكره أيضا في الآيات القرآنية (مريم ٢– ١١) (١٢–١٥)، والانعام (٨٤– ٨٥) الأنبياء .(89-90)

(٢) إنجيل لوقا ١/ ١٣– ١٥

أما اسم سلام فهو اسم يهودي مما شاع في صدر الإسلام، وأشهر من سمي به؛ عبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم ، وصار صحابيا، ونزلت فيه آيات من القرآن الكريم. (١)

ويعنى ذلك أن المؤلف يحاول أن يستخدم أسماء ذات دلالة في الثقافتين الإسلامية والمسيحية؛ وإن كان يقدمها- في الغالب- من خلال صورتها الإسلامية؛ ربما لدوافع متعددة ، منها التأثر بالبيئة العامة التي يعيش فيها ، ومنها الرغبة في الرواج لمقاماته.

والراوي دائما أديب رحالة ، يبحث عن الأدب، ويفتش عنه، ويعاني من افتقاده ، ربما لأنه في هذه المقامة مدفوعا بإكمال السجعة يبحث عنه في غير مظانه فيقول :" بينما أنا في بلاد الروم ، لا أجد في الأدب ما أروم"ص٢٥٧، والأدب هنا ربما يقصد بمعناه الواسع الذي يمثل الثقافة العربية ، ومن أخصها الشعر والنثر. وليس في المقامة سوى فضاء مكاني واحد ، يتسم بالتعميم؛ يظهر في عنوانها الرومية وفي فاتحتها النصية بقوله :" بينما أنا في بلاد الروم"ص٢٥٧.

- <u>البطل والعرض الأدبي والكدية</u> :

ويبدوالبطل -خلال هذه المقامة - في مظهر يهودي قد تنصر، أوربما يتظاهر بذلك ؛ ويخاطب الجمهور حوله بقوله :" قد قرأت الكتب قراءة حبر ، وتصفحتها تصفح سبر... فوجدت المحض قد شيب ، وشباب الحق قد اعتراه المشيب ... وهل بعد إحياء من مات لا يستدرك ذوالغباوة ما فات ؟ فكم من أبرص شفي، ومجزوم عوفي ، وأكمه نظر... إن إحالة الماء خمرا، لعبرا لذوي الألباب وأمرا ... على أني ما أذعن على موسى ، لأطلب من أموالكم أوسا، هوبكر الرسائل ، وباكورة الوسائل ؛ شق البحر ... واستحالة العصا في يده أفعى ... وما جرم من لا يرتدع قومه ، وهل يحمل ذمه ولومه؟ وقد اخترت أن ألتحق بشعبكم ، وأطلع في شعبكم ، ثم أنشد (شعرا)"ص ٢٥٧

(١) (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) ي ١٠ سورة الأحقاف وغيرها من الآيات الكريمة التي ذكر علماء أسباب النزول أنها نزلت فيه، ومنها قوله تعالى :" كفى بالله بيني وبينكم شهيدا ومن عنده علم الكتاب" الرعد ٤٣

فنجده يخلط عناصر إسلامية بعناصر أخرى مسيحية يهودية ، عندما يتناص مع القرآن في مخاطبة ذوي الألباب ، وعندما يؤمن بالأنبياء جميعا ، فلا يعيب موسى ، وإن تظاهر أنه يريد الخروج من اليهودية، ويذكر عنصرا إسلاميا واضحا، بقوله : " وما جرم من لم يرتدع قومه ؟"، فيشير إلى ما ألح عليه القرآن الكريم من أن موسى قد شقي بقومه وأتباعه. (١)

ويذكر بطل المقامة لموسى معجزاته التي ذكرها القرآن الكريم من شق البحر، واستحالة العصا في يده إلى أفعى ، ويذكر أنه بكر الرسائل، وباكورة الوسائل ، وهذه كلها معان إسلامية.

أما عن عيسى فتظهر معرفته به أكثر وأوضح ، عندما يذكر من معجزاته ما أورده القرآن بقوله : (وأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ والْأَبْرَصَ وأُحْيِي الْمَوتَىٰ بِإِذْنِ اللَّـهِ ﷻ) (٢) ، ولكنه يذكر أيضا ما لم يرد في القرآن ، وورد في الأناجيل فقط من أنه " إحالة الماء خمرا في عرس قانا" (٣)

فإذا كان الخطاب النثري للبطل قد أبان عن معرفته بالديانات السماوية الثلاث الإسلامية واليهودية والمسيحية ، وهوبذلك يقدم نفسه للمتلقي على أنه شخص متحير بين الأديان الثلاثة.

وقد اختار أن يتنصر بعد أن كان يهوديا ، فهذا هوالجانب الذي يخاطب به عقول مشاهديه ، لكنه عندما ينشد الشعر– ضمن العرض الأدبي الذي يجب أن يقدمه بطل المقامات نثرا فنيا وشعرا – يظهر الجانب الذي يخص أدب المقامات، وهوالكدية، التي اتفقت عليها المقامات السردية ابتداء من بديع الزمان الهمذاني، فيقول شعرا:

لولا ديون أثقلت ظهري وكوت خاطري
سعيت أقتاد الورى فعل الخبير الشاطر ...ص٢٥٨

(١) انظر على سبيل المثال الآيات الكريمة التي تروي عن ارتداد قومه إلى عبادة العجل ؛ عندما تركهم في عهدة أخيه هارون، وذهب ليكلم ربه. انظر سورة الأعراف ١٥٠ وما بعدها وسورة طه ٩٤

(٢) آل عمران ٤٩

(٣) انظر إنجيل يوحنا الإصحاح الثاني ١–١١

ثم ينقلنا البطل إلى تقنية سردية جديدة ، وهي الحكي داخل الحكي ، الذي يمثل إضافة تثري القيمة السردية للمقامة، وتبتعد بها عن البنية البسيطة ، وتجعلها أقرب إلى بنية مركبة ، ويكشف عن دلالات سيميائية أخرى . فيتحول البطل إلى سارد يقدم حكيا داخليا ؛عندما يذكر أنه كان يهوديا متطرفا يضطهد النصارى، فيقول: " لم أزل أقصد كل بيعة [١] وأنفر عنها كل طبيعة ، واضطهد أبناء العماد– أي النصارى أبناء المعمودية – في أقطار البلاد ، فبين أنا يوما أسيح ، قابلني المسيح ، فردعني وزجر ، وشق ينابيع التخويف وفجر ، فاسترشدت في هداية الطريق ، فأرشدت إلى خباب البطريق ، وقد أتيت وما ونيت ، ثم أنشد:

قد ردني أمر بعد عي ... أعيا إلي مهيع الرشاد
واقتادني من سراة قو ... م نموا على سنة العناد...
إلى أناس لا يضطبنهم ... طيب رجاء عن المعاد
قد حققوا أن كل زرع ... ينعى على راحة الحصاد...
قد زهدوا في الحرير علما ... ما رونق السيف بالنجاد
وما تقوم النفوس طرا ... بطيب عيش وفرط زاد ص٢٥٨– ٢٥٩

فينقسم هذا المقطع السردي إلى جزءين : نثري خبري ، والآخر شعري، ولكل دلالاته . ويتضمن هذا المقطع السردي خبرا بسيطا ينبني على النحوالآتي:

الوضع المبدئي : كان البطل يهوديا متعصبا ، محاربا للنصرانية ، معاديا لها ، وقد ظهر تطرفه الديني في قصده بيع النصارى لهدمها أوللتنفير من قصده ، وإساءته – خلال ذلك – إلى أبناء العماد.

١ – ثم يروي لنا أن المسيح قد ظهر له– في إحدى معجزاته – وزجره وعنفه ، وإن كان ظهوره الذي يرويه البطل مخالفا لما هو معروف عن المسيح في سياق الثقافة الإسلامية من كونه إنسانا مسالما وديعا.

(١) (البيعة هي مصلى النصارى وجمعها البيع)، الراغب الأصفهاني ، كتاب المفردات في غريب القرآن ، تحقيق مصطفى بن العدوي، المنصورة ، مكتبة فياض، ٢٠٠٩ ، ص ١٠٣

١-فارتدع وعاد إلى الصواب ، والتمس الطريق، وتبع خباب البطريق ، وهكذا نجد هذا الخبر المتضمن في السرد الداخلي ذا بنية بسيطة تشتمل على وضع مبدئي، ثم فعل، ورد فعل.

أما الشعر فيذكر البطل فيه بضمير الغائب ، أن المسيح رده إلى طريق الرشاد، وأنقذه من سراة قوم قد تربوا على سنة العناد، وهذا عنصر إسلامي واضح مما ذكره القرآن الكريم من معاناة موسى والأنبياء من اليهود: { لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون } (١)

ثم امتدح البطل في شعره النصارى بأن عندهم طيب رجاء في المعاد (الآخرة)، ويذكر موعظة قد وردت في المسيحية "وهي كل زرع إلى حصاد "وفيها يقول المسيح: لأنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء"(٢). والدليل الآخر من كلام بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ويتحدث فيها عن قيامة الأموات على النحوالأتي (يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً). (٣)

وكذلك امتدح البطل في شعره زهد رهبان النصارى في الملابس اللينة كالحرير ، وهوأيضا غير مباح في الإسلام للرجال بعامة.

ثم يذكر موعظة مسيحية أخرى ، تقول :" ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"(٤). وترد في إنجيل متى على النحوالآتي :" فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وقَالَ لَهُ:«إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا». فَأَجَابَ وقَالَ:«مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ».(٥)

ثم أقحم الراوي المترجم شخصية هامشية – غير معهودة في المقامات– وهي الترجمان ، يقول الراوي: " فأخذ الترجمان يعبر خطابه ليملأ بالكرم وطابه ،

(١) (المائدة:٧٨)
(٢) انجيل متّى (٢٢/٢٩)
(٣) انجيل متى (١٥/٤٤)
(٤) انجيل متى ٤: ٣-٤
(٥) انجيل متى ٤: ٣-٤

فحين خبر كنه لفظه ، أم بإكرامه وحفظه ، وأعطى ما قصر عنه شكر" ص٢٥٩ ، وندرك منها إن البطل كان يتكلم نثرا ، وينشد شعرا بالعربية ، وهو في البلاد الرومية ، فكان لابد من مترجم (الترجمان)، ينقل إلى المجتمعين حوله من الروم فحوى كلامه ليفهموه.

فالترجمان ليس مسئولا عن النصوص العربية البليغة السابقة ، فهي من صنع البطل – وكذلك المؤلف – الذي يتوجه بمقامته إلى جمهور عربي.

ثم عاد البطل إلى السؤال والاستجداء والوعظ مرة أخرى بقوله في لغة تظهر عليها مسحة من المسيحية " الكريم من يسامح أخاه قبل اختباره ، وطوبى لمن شمر ذيله لأعمال آخرته ، أما الفناء فيرعى روض شبابه ، ويقطع عرى أسبابه " ص٢٥٩.

لكن المتلقي للمقامة يعنيه ما حصل عليه البطل ، من وراء كديته وحيلته ، المغطاة بالأدب شعره ونثره.

- <u>التعرف:</u>

وهومكون رئيس من مكونات الحكاية في المقامة؛ إذ يتولى خلاله الراوي كشف النقاب عن البطل ، وتوضيح أصله ، وفضح حقيقته فيما بينهما؛ دون أن يفضحه أمام الجمهور؛ ربما لتنتهي هذه المقامة ، ولكن تستمر المقامات في التوالي.

ويتحقق التعرف في مقطع سردي خالص؛ فيأخذ الراوي في السرد قائلا: "فمنذ اتضح لي مكره ، أخذت أنقب على كسره ، فمذ عرف بهتكه وكسره ، منعي عن الإفصاح بخبره " ص ٢٥٩

ويلاحظ أن هذا المقطع السردي الخالص (التعرف) يتألف من خبرين بسيطين يتمثل الأول في " فمنذ اتضح لي مكره ، أخذت أنقب على كسره " ؛ فهو مكون من فعل ورد فعل.

أما الخبر الثاني : " فمذ عرف بهتكه منعني عن الإفصاح بخبره "، فذوبنية بسيطة أيضا، قوامها الفعل ورد الفعل .

أما الوضع المبدئي لهما فهو العطاء الكثير الذي نجم عن حيلة البطل ، ولعل البطل خلال خطبته الأخيرة، كان يوري عن الراوي عندما يقول : " الكريم من يسامح أخاه قبل اختباره. "

فيذكر بالعقد الضمني الذي يشكل أحد عناصر المقامة ، وينبني عليه التعرف، ويتمثل في أن يتعرف الراوي على البطل فيما بينهما ، ثم لا يفضحه أمام العامة ، ليستمر البطل في ممارسة كديته ، وتستمر العلاقة الودية بين الراوي والبطل.

- اختتام المقامة بالشعر:

ولابد أن تختتم المقامة بالشعر ، بعد أن يتم التعرف ، وينكشف حال البطل ، ويتحتم الفراق، يروي ذلك الراوي : " فحين فزع من الزجر؛ وأخذ نحلة الأجر أنشد:

يا سائلي عن وطني	وبلادي ومسكني
في البصرة الفيحاء واحد	بحت طليق الرسن
لولا عناء حل بي	من نزوات الزمن
لم ترني في غزنة	وتارة في يمن
تالله مذ فارقتها	فارقت طيب الوسن
ولم أجد خدن ندى	يروي الجدي عن معدن
ولا لفت ناظري	على نديم حسن ... ص٢٦٠

ويتبين من خلال الأبيات السابقة ما يأتي:

- تتحدد شخصية البطل أوهويته بارتباطه بوطنه البصرة ، التي يحن إليها فيمدحها.

- شكوى تقلب الزمن وهي– في الغالب – كناية عن تقلب الأحوال السياسية والاجتماعية في عصره.

- هوبطل رحالة ؛ شمل ارتحاله مشارق الأرض ومغاربها ، مرة إلى غزنة في المشرق ، ومرة أخرى إلى اليمن في أقصى جنوب بلاد العرب.

- يشكوفراق موطنه ، وأنه فارق النوم مذ فارقه ، وأنه لم ير في بعده عن وطنه صاحب كرم يسير فيه على سنة آبائه وأجداده الكرام، أي أن الكرم في

موطنه طبع موروث، وفي غير موطنه تكلف ، ويندرج ذلك ضمن عناصر الكدية المعتادة من شكوى الزمن وأهله .

ثم لا نجد في تلك الغربة من يعينه عليها من نديم حسن، والنديم " الصاحب على الشراب المسالم"[١]، وربما كان المؤلف يعرض علينا صورة مما كان يحدث في ذلك العصر ، من احتيال بذكر التنصر في البلاد التي تقع على الحدود بين المسلمين والروم .

مقامة أديرة الشام :ص ٣٠٧

ويتشكل بناؤها السردي على المكونات الآتية :

- الراوي والفضاء :

يقدم لنا الراوي الوضع المبدئي ، حالة السكون التي خرقها البطل ، لتبدأ أحداث المقامة ، عندما يصور لنا فضاء المكان ، الذي وقعت فيه الأحداث ، بقوله: " بينا أنا في بعض أديرة الشام ، من سن الغلام، أجري بجواد المرح ، ولا أجمح عند فرح ، تتعاورنا كاسات الراح المروقة ، وقسي اللذة المفوقة ، وفكاهتنا الفكاهات ، وفاكهتنا الحكايات ، ونحن في عيش نام رقيبه ، واستيقظ طيبه ، وقد اتخذنا أفيح القلالي دار إقامة ، اتخاذ من لا يفكر في قيامه ، وغل علينا شيخ أسود لونه وأبيض جونه"ص ٣٠٧

ويلاحظ أن المكان غارق في التنكير ، بعض أديرة الشام ، وقد قدمت الأديرة – في أدبنا العربي– بوصفها أماكن يقصدها الشعراء، والمجان مثل أبي نواس ومطيع بن إياس والحسين بن الضحاك وغيرهم ،وكذلك الخلفاء مثل الوليد بن يزيد الأموي والمنصور، وهارون الرشيد والمأمون والمتوكل للشرب والمنادمة، واشتهرت بذلك حتى صنفت فيها الكتب مثل كتاب الديارات للشابشتي.[٢]

وكما اقترن الدير– في سرد الراوي – بالراح المروقة ، ينبو التعبير الذي يحقق السجع مع الفاصلة السابقة مثل قوله : " وقسي اللذة المفوقة "، عندما

(١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين ، القاهرة ، دار المعارف ، مادة ندم.

(٢) أبوالحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي ، كتاب الديارات ، تحقيق كوكيس عواد ، دار الرائد العربي، بيروت ، لبنان ، ط ٣، ، ١٩٨٦ . انظر فهرس الشخصيات ص ٤٣٣

يجعل للذة سهاما تخترقهم ، ويمهد قوله : " وفاكهتنا الحكايات " للسرد الذي يمثله هذا النوع الأدبي (المقامة) بما تشتمل عليه.

ثم يذكر غفلتهم عن القيامة والآخرة والعبادة، تظاهرا من المؤلف بحسن الديانة ، وربما ذكر (سن الغلام) ليروج لإقباله على اللهو، وربما إسرافه فيه، وربما تأثرا بمسيحية المؤلف ، الذي يرغب في الإيحاء بأنه قد نشأ في الدير منذ بداية حياته ، لكنه انحرف إلى اللهو والفكاهات والحكايات.

<u>البطل والعرض الأدبي والكدية:</u>

ويعبر الراوي عن المفاجأة التي يحققها ظهور البطل ، بقوله:" وغل علينا شيخ أسود لونه، وأبيض جونه ، فتجهمنا لهجومه ، واستعرضنا لصوائب وجومه ، فكأنه عرف وجومنا ، وخبر عجومنا، فقال : طوبى ..."[ص ٣٠٧]

فيقدم صورة منفرة للبطل ، إذ يقول : إنه وغل عليهم ،أي دخل متطفلا عليهم دون ما استئذان مقتحما فضاءهم ، ويصفه بأنه شيخ أسود لونه ، وأبيض جونه ، أي أسود وجهه ، وأبيض شعره شيبا.

وبعد محاولة الراوي تقبيحه ،ليبالغ في استنكار قدومه، فأصحاب المجلس أضداد له ، فهم شباب بيض الوجوه ، أصحاب كرم ونفقة، والبطل بخلافهم شيخ أبيض شعره ، وأسود وجهه بفعل السنين أوبفعل لؤمه.

وجاء رد فعلهم مساوقا لذلك ، فتقبضت وجوههم ، لهجومه عليهم، وقابل تجهمهم بعدوانية ، فصوب إليهم سهام وجومه ، وأعداهم بالوجوم.

لكن ما لبث أن استفاق من صدمة اللقاء وفقه عجومهم ، وعرف حقيقتهم، وفهم أحوالهم ، وقابل رفضهم إياه بعدوانية وعنف ، مارسه من خلال اللغة.

وبدأ الموعظة على النحو الآتي : " طوبى لمن استعد لمآله ، وهذب جوهر أعماله ، وعفا الناي والمزهر، ... (وأخذ في توبيخهم): ألهاكم صوت المزامير، عن تلاوة صحف المزامير، ومنعكم ألحان الغواني عن تلحين العناني ، وشغلكم نغمة القانون عن إيراد القانون ، ولفتكم طلب الترحيب والتبجيل عن حفظ معان الإنجيل ، وحملكم محبة الذهب عن رفض علوم المذهب... أحدكم عقد الزنار ، وقلبه موزع في توزيع الدينار، كان الأجدر أن يفكر في النار قبل البري بالسفار،

وأن يغدو بالورع موصوفا قبل أن يتدرع صوفا ، ... ودأبك أن تتخير في الكبر المراكز ، وتستجيد تقويم العكاكز" ص ٣٠٧ – ٣٠٨

ويلاحظ أن الموعظة قد جاءت عدوانية انتقامية ، ردا على موقفهم المنكر له حيث يمدح من هم بخلافهم بقوله (طوبى...) ، وبذلك يعرض بهم ، ثم نعى عليهم انشغالهم بالناي والمزهر، وأخذ في توبيخهم بواسطة الجمل الخبرية "ألهاكم صوت المزامير عن تلاوة صحف المزامير"، معتمدا على المشترك اللفظي والجناس ، فالمزامير الأولى جمع لمزمار وهو آلة موسيقية ، أما الثانية فهي جمع لمزمور وهي الصلوات المشهورة المنسوبة إلى داود، وعلى السجع بين كلمة الغواني وهي جمع غانية، والغناني يقصد بها نوعا من الأناشيد الدينية المسيحية ، ويتلاعب بكلمة القانون لتشير مرة إلى الآلة الموسيقية ، وأخرى إلى التوراة.

وانتقل من صلوات التوراة إلى معاني الإنجيل، لأن التوراة والإنجيل يمثلان معا الكتاب المقدس لدى المسيحيين، ثم إلى حياة الرهبان،ووظف ملابسهم في تعييرهم بسوء أحوالهم، مثل قوله: "أحدهم عقد الزنار وقلبه موزع بتوزيع الدينار"

فالجملة الخبرية تفيد التوبيخ ، فبينما الراهب منهم قد أخذ العهد على نفسه وعقد زنار الرهبنة ، يخلص قلبه لطلب الدينار بدلا من أن يخلصه لله ، وفاء للعقد الذي عقده . ولمزيد من التوبيخ يعلن كيف لا يشتهر أحدهم بالورع ، قبل أن يضيع شبابه وقوته ، فيتدرع بالصوف ؟ وكيف يشغل قلبه بالمراكز الرئاسية ، ولا يرعوي لكبر سنه ، واتخاذه العكاكيز . ثم إن البطل ينتقم من جمهوره أيضا عندما يذكرهم بأنهم سيصيرون مثله ، فقد دفعهم شبابهم إلى تجهم شيخ مثله.

ثم أكمل عرضه الأدبي بعد أن أجاد في النثر بالإجادة في الشعر، فنظم مسمطة [١] طويلة مؤلفة من أدوار مكونة من ثمانية عشر دورا. [٢]؛ لأن الأديب الكامل هومن يجمع بين الإجادة في المنظوم والإجادة في المنثور.

---

(١) قصيدة عربية تتألف من مقاطع وأدوار ، وكل مقطع أودور يتألف من أربعة أشطرأوأكثر، متفقة في القافية ماعدا الشطر الأخير، فإنه يستقل بقافيته المختلفة مع اتحاده فيها مع الشطور الأخيرة الأخرى في جميع المقاطع أوالأدوار، مجدي وهبة ، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢ ، بيروت، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ ، ص٣٦٥

(٢) المرجع السابق ، ص٣٠٨ – ٣١٠

ثم عاد البطل ليكمل وعظه النثري ؛ ليدخل إلى المكون الأهم من مكونات العرض الأدبي ، وهوالكدية ، والعجيب أنه عندما يذكرهم بالآخرة يستشهد بالقرآن الكريم سورة القارعة فيقول : " والأتراب لا ترفع عن مفارش التراب ، تعود بها الجبال كالعهن المنفوش" ص٣١٠ فعندئذ يتناص مع الآية الكريمة التي تقول : عن يوم القيامة :" يَومَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش"(١)

وليكمل كديته ، وتنطلي حيلته تظاهر بأنه يجمع الصدقات للفقراء من أهل حيه، الذين" لزموا من العيش ما خشن ، وأفنوا العمر ركوعا وخوفا وخشوعا ينتظرون الحين انتظار السغب الزاد" ص٣١٠.

ويوظف الإنجيل في كديته ؛ ليدفع عن نفسه التهمة ، تهمة أنه يجمع المال لنفسه ، فيقول : " لا تحسبوا أني سعيت لنفسي ... وفي الإنجيل يؤمر بالإيثار، أمرا لا يدعوا ذا اللب إلى عثار، فإن منحتم إخوانكم ما يفثأ عنهم طارق الجدب ، وما خصصتم من نوالكم بالعذب ، التحقتم بالأبرار" ص٣١٠

ثم يسرد الراوي أن حيلة البطل قد نجحت ، وأن كديته قد أثمرت؛ فيعبر عن ذلك في سرد سريع تتوالى أفعاله عندما يقول : " فتداخل القوم فربح ، وخارهم جزع ، فعمد كل منهم إلى ظهور ذخيرته ، ظهور من أفكر في آخرته ، فأخذه أخذ من ظفر بطلبه، وفاز بأنفس أربه " ص ٣١٠

ويلاحظ أن الراوي – وقد اتخذ منذ البداية – ضمير الغائب يتقمص دور الراوي العليم ، الذي لا يتوقف علمه عند مظاهر الأشخاص وإنما ينفذ أيضا إلى دخائل نفوسهم (٢).

---

(١) سورة القارعة ي٤ – ٥

(٢) يقول أحد الباحثين في تعريفه :" يستخدم الحكي الكلاسيكي غالبا هذه الطريقة ويكون الراوي عارفا أكثر مما تعرفه الشخصية الحكائية/ إنه يستطيع أن يصل إلى كل المشاهد عبر جدران المنازل ،كما أنه يستطيع أن يدرك ما يدور في خلد الأبطال " حميد لحمداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، ط ١ ، بيروت ، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١ ، ص ٤٧

ولذلك نجد الراوي يذكر جزع القوم من تأثير وعظ البطل، وحرص كل منهم على إخراج ذخيرته التي هي أعز ما لديه ، وأوضح كذلك خشوعهم بقوله :" ظهور من أفكر في آخرته " .

وكما كشف عن نفوس المتلقين ، كشف عن دخيلة البطل المكدي ، فأوضح فرحه ، ورضاء نفسه ، بنجاح حيلته ؛عندما قال : "فأخذه أخذ من ظفر بطلبه ، وفاء بأنفس أربه " وربما أكمل تعبيره عن فرحه بأن دفع البطل إلى إنشاد الشعر يمدح جمهوره، فالمعتاد أن يمدح الشعراء من يجزل لهم العطاء، في مقابل ما يقدمونه من أدب . وخاطب البطل جمهوره بقوله:

يا من لهم فضل الأيادي من كل أبناء العماد (المعمودية)...
ولسوف ينشر ذكرهم في كل أقطار البلاد
ويرون أيمن طائر بالزهد في يوم المعاد
فهناك ليس لحمير فخر على أبناء عاد ص ٣١١

ويلاحظ أن الأبيات تتسارع فيها الثقافة المسيحية ؛ فيجعل أبناء العماد لا يقاسمهم الفخر من الناس مرتفع العماد من العرب ، ولذلك سيكون المتصدق المسيحي أفضل من حمير وعاد. فالعربي كان يعطي لينتشر ذكره في البلاد ، وهنا تظهر الثقافة المسيحية عندما يذكر أن زهد متلقيه المسيحيين سينفعهم في يوم المعاد.

وتتنافس الثقافة العربية في الظهور في الشطر الأول من البيت عندما يستخدم الشاعر : أيمن طائر، وتحضر القبائل العربية في البيت الأخير (حمير وعاد) ، وإن كان يتناص مع القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَومَئِذٍ ولَا يَتَسَاءَلُونَ) [1]، ولكنه يوظفه لتفضيل معاصريه على تلك القبائل.

- <u>التعرف:</u>

وكان لابد أن تختتم المقامة بكشف سر البطل ، وفضحه على يد الراوي، وقد يحدث بينهم جدال، يكيل فيه الراوي التهم للبطل ، معبرا – في الغالب – عن

(١) المؤمنون(١٠١)

الضمير في العصر أوالمجتمع أوالثقافة السائدة، ويرد البطل بعنف وشدة مبررا انتهازيته ، معبرا عن أخلاق طائفته، ومعتذرا بما يسود العصر من أخلاق الناس وأعمال مستنكرة؛ يقول الراوي ساردا التعرف الذي يبتدئ ذلك بذكر ظرف الزمان الذي يعبر عن نقلة سردية ؛ فيقول: " فحين ختم إنشاده ، وقصر إرشاده، اندفع اندفاع السهم ، فواقعني الوهم أنه أبوعمرو صاحب المناصيب ، والذي بكل مرماه يصيب ، فسارعت وراءه حتى وقفت حذاءه ، فقلت: وعلى الرهبان تنفق من كيس البهتان ، أما تخشى من الديان غداة تتلى عليه صحف الأديان ، فقال : لوملكوا أزمة الصفا ما اختفى على القوم من أمري ما اختفى، أما فيهم من يخبر بالغيب إذا صفا جوهره من العيب، ويحيي الميت إذا هجر قول ليت، لكن لما خبث تبرهم، وبعد قبرهم، شدوا بقرن الآمال ، ومالوا إلى المال، وانجذبوا إلى الملاذ الزائلة ، ونسوا آفات الآخرة الهائلة، فدخل عليهم النقصان ، وأوثقوا بربقة الشيطان. فمذ عرفته بما عفر وهان ، وأظهر عند اختباره البرهان ، قلت : سبحانك من ألهمك الدهى ، في تحصيل اللهى ، فقال : النصح أولى ، وتركني وولى " ص٣١١

ويلاحظ أن الراوي العليم يعتمد على السرد بضمير الغائب ، مستخدما الأفعال الماضية ، والسجعات القصار ؛ ليعبر عن سرعة الحركة ، ولذلك كان قوله : "اندفع اندفاع السهم " ليعبر عن سرعة هروبه ، مما أراب الراوي ، وأدخل عليه الوهم ، أنه أبوعمرو صاحب المناصيب والحيل ، فسارع وراءه ، حتى وقف حذاءه، وأخذ يقرعه .

فأجابه إجابة نقدية يستعين فيها بثقافته الواسعة ، بأن حيلته إنما تنفق عليهم لما افتقدوا الصفا ، فاختفى عليهم من أمره ما اختفى ؛ فإنهم لتقصيرهم لم تصف جواهرهم ، فلو صفت من العيب، لأخبرت بالغيب، وقد دخل عليهم النقصان – وفق عبارته – عندما انجذبوا إلى الملاذ الزائلة ، فلو صفت قلوبهم لكانوا أدركوا حقيقة أمري ، ولكن قلوبهم غير صافية لما لها من تعلق بأمر الدنيا ، ثم تخلص منه البطل وتركه.

ويلاحظ أن ابن ماري ربما تعمد انتقاص الرهبان ، وانتقاد أحوال الديانة المسيحية في عصره ،تعينه على ذلك نصرانيته التي اكسبته خبرة بطوائف النصارى وأسرار ديانتهم؛ وربما لأن الأدب في كثير منه نقد للمجتمع.

- الختام:

يتمثل الختام في أدب المقامة -غالبا- في إنشاد بطل المقامة من الشعر عدة أبيات تلخص فلسفته في الحياة ، ورؤيته لأبناء عصره ، ويقدم – من خلال ذلك النقد – رؤية متشائمة لواقع العصر الذي يعيش فيه المؤلف ابن ماري ، فالبطل ينشد:

امكر بمن تلقاه لا	تخشى الأمور وتراقب
مكر امرئ ترك الحيا	ء فليس يفكر في العواقب
صبغ الأنام مكائدا	تدهى الورى والليل واقب
فبذا تم لك المآثر	والمفاخر والمناقب
واخدع بني الدينار	... ص ٣١٢

فالبطل يمارس حياته في الكيد والاحتيال ، وهويعد ذلك من المآثر والمفاخر والمناقب ، لأنه يواجه عصره بما يليق به ، ولذلك ابتدأ مقطوعته بقوله: " امكر بمن تلقاه " ، أي دون تفرقة من الناس، لأن الفساد – في رأيه – قد شمل أبناء الزمان جميعا، فصاروا (مكائد لغيرهم من البشر) ، يظهرون في النهار ما يخفونه في الليل ، فكلهم قد صار عبدا للدينار ، حتى من يفترض فيه أنه نذر نفسه للعبادة، وإقامة الدين ، والعمل على استمراره ، ونشره ، وامتداده مثل طائفة الرهبان .

المقامة السرنديبية : ص ٣٢٥

يلاحظ أن هذه المقامة تقدم الرؤية التوراتية للمرأة ، عندما تجعلها مصدر الشرور، وسبب ما وقع فيه البشر من بلاء ، حينما تسببت حواء في فتنة آدم ، وتابعت إبليس ، فأغرت زوجها بالأكل من الشجرة المحرمة، وقد ورد ذلك في سفر التكوين. (١)

(١) انظر الكتاب المقدس سفر التكوين ١- ٣

لكن القرآن الكريم يبرئ حواء من تهمة إغواء آدم ، ويجعلهما شريكين في المعصية ، فقد وقع عليهما معا التأثير ، حيث يرد في سورة الأعراف قوله تعالى:"ويَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وزَوجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ولَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوسْوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا ووريَ عَنْهُمَا مِن سَوآتِهِمَا وقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوتَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوآتُهُمَا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن ورَقِ الْجَنَّةِ ۖ ونَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُو مُّبِينٌ (٢٢)" [١]

وتبدأ المقامة على النحو الآتي؛ عندما يحكي الراوي يحيى بن سلام باقتضاب ارتحاله من البصرة ، بسبب الجدب والفقر " رحلت عن البصرة عام نحيب، براحلة ونجيب ، وفرس وجنيب أقصد سرنديب " ص ٣٢٥ يحاكي بذلك فكرة الرحلة العربية النمطية من الجدب إلى الخصب ،قطعا للفلوات الشاسعة.

وعندما وصل سرنديب دخل دار الحاكم بها ، فالراوي أديب عربي رحالة، هدفه الجدوى والعطاء، يلتمس سرنديب لأنها " لا تشيم برق أديب " ص ٣٢٥ ــ يقطع الفلوات " براحلة وجنيب" ص ٣٢٥ شأن العرب في ارتحالهم.

وفي فضاء دار الحاكم أو القاضي تدور أحداث المقامة عبر فضاءين: وهكذا تكون المقامة قد احتوت – شأن جل المقامات – على مكان رئيس يبديه عنوان المقامة ،وهو مدينة سرنديب.

أما الفضاء الخاص الذي تدور فيه أحداث المقامة فهودار الحاكم ، صاحب النفوذ والمال، الذي يكرم وفادة الأدباء ويستطيع أن يثيب على الأدب الجيد.

ولذا كان الشعراء – منذ القدم – يقصدون بشعرهم الحكام والولاة ، ومن يستطيعون مكافأتهم على أدبهم ، فهناك ارتباط وثيق بين الحكام والعطاء، وبين الأدب والكدية ، ولأن الأمر منافسة بين خصمين يستدعي الحكم بينهما ، وأولى أن يقوم بذلك حاكم (قاض).

(١) الأعراف ١٩ – ٢٢.

ويروي السارد أنه بينما يمارس القاضي عملة إذ فجأة :" ورد شيخ يعثر بخطاه، قد احدودب مطاه، وتلوه فتى قوي الشظاظ [ونتوقع من ذلك أن يشارك الصبي أباه في الكدية ، وإحدى مظاهرها المناظرة؛ التي تبرز بلاغة كل منهما ، واقتداره على إيراد الحجج]، مشتعل الشواظ ، فما لبث *الشيخ* أن قال مقالة من أعال وعال: الحمد لله باسط الأنوار ، ومزين الكمام بالنوار". ص ٣٢٥

ثم أخذ في خطبة طويلة ورد فيها قوله الآتي : " ولما كان الهوى آفة الحوباء، ومزلة العلماء، حتى إن أنبياء الله حصلوا في حباله ، ورشقوا بأسهم وباله ، ووقعوا فيما دعاهم إلى الاستغفار ، وأوطأهم على حرن كحد الشفار ،... لكن الأرجح بعقلك الراسخ ، أن ترم الخرق الذي دخل على داود منه الخطل ، فتأباه من نهلك والعلل ، أليس من النساء أشراك إبليس ، ومعادن الخيانة والتلبيس، ومغبة الندم ، ومجرمة آدم في القدم ، فبصرك الله سبل السداد ، وحولك من الخلل إلى الرشاد ."ص ٣٢٦.

ولعل تركيزه على الخطل الذي دخل على داود، يرجع إلى معرفة المؤلف بالقصة المطولة في التوراة لفتنة داود بامرأة أوريا الحثى ، وما فعله لكي يظفر بها ، بعد قتل زوجها [١]؛ فالمؤلف يركز على خطيئتين أساسيتين ، جعلت التوراة المرأة أساسا لهما ، وسببا مباشرا فيهما: وهما معصية آدم ، وخطيئة داود ، ولكن قوله : "ووقعوا فيما دعاهم إلى الاستغفار" يتفق مع ما ورد عن استغفار آدم ربه ؛ الذي تحمله الآية الكريمة: " فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوالتَّوابُ الرَّحِيمُ." [٢] وما ورد في القرآن الكريم من استغفار داود " وظَنَّ دَاوودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ رَاكِعًا وأَنَابَ" [٣]

(١) الكتاب المقدس – العهد القديم– سفر صموئيل الثاني– الفصل/ الأصحاح الحادي عشر
(٢) البقرة ٣٧
(٣) ص ي ٢٤

ثم يعرج البطل / الشيخ على الثقافة الإسلامية دون أن يتفهم سياقاتها ، فيقول " أما قال ذوالعقل الرصين ، ويقصد النبي محمد(صلى الله عليه وسلم)، النساء ناقصات عقل ودين [١]

ثم يروي كذلك عن بعض الحكماء الخبر الآتي : " إن من أولى العبر رأى منقول من نصوص دينية لها قداستها أو أخبار عن حكماء ؛ ليحقق ضربا من الحجاج بالسلطة.

ثم يرجع إلى التراث الأدبي العربي فيقول : " أما ترددت من الأدباء قصة جذيمة مع الزباء "ص ٣٢٧ هي قصة عربية تحكي عن غدر الزباء بالملك جذيمة الأبرش، أحد ملوك العراق ، فكان أن وعدته بالزواج، ولما وافى في الميعاد أمرت جنودها بقتله . [٢]

ويلاحظ أن هجومه على المرأة تطغى عليه الصنعة الفنية التي تفرضها أوتستدعيها المقامة ، من أجل أن يبدو البطل في صورة الأديب الكامل ، الذي يجمع بين الإجادة في المنظوم والمنثور معا، وتدفعه الرغبة في إظهار البراعة إلى أن يورد أبياتا في وصف محاسن المرأة، ويتعلل بذكرها بقوله :" وعثرت بالأبيات التي تصف فيها محاسن مصافاة صاحبتك ، وحسن عهد محبوبتك ، وعجبت من غرورك بزخارف منمقة ، وأكاذيب لست منها على ثقة وهي..."ص٣٢٦

---

(١) فقد أخرج البخارى الحديث فى بابين من كتابه، الأول: باب «الزكاة على الأقارب» والثانى باب «ترك الحائض الصوم»: «حدثنا... عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أضحى أوفطر إلى المصلى فمر على النساء فقال يا معشر النساء تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار فقلن وبم يا رسول الله قال تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله قال أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، قلن بلى، قال فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم، قلن بلى، قال فذلك من نقصان دينها» البخاري ، صحيح البخاري بشرح الكرماني، بيروت – دار إحياء التراث العربي، ط ٢ ، ١٩٨١ (٥٠٧/١).

(٢) أبوالفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال ،الأستانة ، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة ،١٣٥٥ هـ ، ج ١ – الفصل السابع ، فيما أوله خاء، ص٢٤٣-٢٤٦

ويلاحظ أن البطل ينسبها إلى ابنه، ويجعلها معبرة عن رأيه ؛ تمهيدا لأن يعلن بهرجتها ومخالفة مضمونها ، ويصف شعر ابنه بأنه " زخارف منمقة وأكاذيب"، لعل الدافع إلى ذكرها رغبته في إظهار براعته في النظم . ثم يورد النصح لذوي الألباب ، بعدم الاغترار بمحبة النساء يورد أبياتا تضادها ، ربما ليبرز مهارته – تأثرا بالجاحظ – في ولعه بالمحاسن والأضداد.

وربما تنتمي هذه المقامة إلى البنية المركبة ؛ إذ اشتملت على البطل ، الذي يظهر في صورة شيخ عجوز ومعه ابنه ، ويدخلان في ضرب من المناظرة، والمحاورة الحجاجية .

يأخذ الغلام فيها خطا واضحا ، هومدح المرأة ، ويركز على ملامح الجمال الحسية ، تعبرعن ثقافة مجتمع ، يرى في المرأة مادة للمتعة ، وليس فيها غير أوصافها الحسية ، وقد اتفقا في ذلك نثر الغلام وخطابته، وشعر الشيخ كذلك.

وعندما فرغ الغلام من حجته في الانتصار للمرأة لجمالها ، أجابه الشيخ ، بقوله في تقبيح المرأة الذي أفاد فيه من ثقافته الواسعة، ومعرفته بالتراث ، فقال الشيخ : " هل وصفت غير نبت مصوح ؟ ... أما من معجلات المشيب ، ومسملات القشيب ، ومنهكات الأبدان ، ومبالدات الأذهان ، وتحيرات لقمان وصويحبات يوسف وسليمان وداود حين دان ، وموسى حيث رعى الماعز ثمان ...صفاؤهن ممتزج بكدر، إن فيهن لعبر، كم قتلنا ليثا قسورا ، أوجدلن كميا"[ص٣٢٩]

فيذكر الشيخ مثالب المرأة وأهم ما نتوقف عنده هواتهامها بأن طبعت على الخيانة . ويلاحظ أن هذا المأخذ استمده الشيخ من الثقافة المسيحية ، فقد ذكر أن الخطل الذي دخل إلى أنبياء الله يوسف وسليمان وداود وموسى كان من جهة المرأة ، وهم أنبياء توراتيون كان مبعثهم في اليهود ، ثم ينقل من الثقافة السائدة أنهن حيرن لقمان.

وفسر ما فعلته المرأة في أولئك الأنبياء والملوك التوراتيين ، بأنها تسببت في تشويه سيرة سليمان وداود، وحاولت المكر بيوسف ، ثم جعل زواج موسى الذي كان صداقه أن يعمل لدى والد زوجته ثماني حجج أوعشر ، ويجعله سبة وعيبا في شخصية موسى ، مع أن النص القرآني يبرز ذلك في صورة حسنة

لشخصية موسى عند شعيب ، وموقفه من بناته حين سقى لهما ، ثم تولى إلى الظل، كما تذكر آيات القرآن الكريم (١)

ثم التفت الشيخ إلى ابنه وقال : " فرم هواك ، ورم دواك، فقد لقنت وما حفظت ، وخوفتك وما تحفظت ، من لم يعص أباه ، وتبع السنة ولزمها وما تركها أوفى جنة " ص ٣٢٩.

ويلاحظ خلال هذه النصيحة أن المؤلف يورد على لسان البطل ذما لاتباع الهوى ، ويستعمل لفظة (طوبى) عندما يشير عليه باتخاذ الدواء ، في لغة دينية يحملها قوله : "فطوبى لمن لم يعص أباه ، وتبع السنة وما تركها ،أوفى جنة"ص٣٢٩

ثم يعود الراوي إلى مهمته الأساسية ، وهي سرد القصة ، وتنظيم أدوار الفاعلين ، والربط بين أجزائها ، فذكر لنا قال الراوي : "فبكى الفتى وأعول ، كأن على الوصاة عول "ص ٣٢٩ وإلى هذا الحد تنتهي المناظرة بين البطل وابنه.

ثم دلف الفتى إلى الغرض الرئيس، الذي جاء من أجله هوووالده فغير رأيه، وانقلب موقفه من أجل الكدية ، فذكر عوزه ، وأنه يحتاج إلى من ينحله المهر، ليصبح من البعول ؛ فقال : " من يعول ينتظم في سلك البعول ، وها جسم المجد قد نحل ، لتعذر من ينحل ، فيما يعقد نكاح الحرة ، ومن يصطلي نار الاتفاق وحره " ص٣٢٩

ويذكر الراوي أن بلاغة الفتى قد صادفت موقعا حسنا من القاضي؛ فعجل بإسعافه " فرجع عنه يضوعان نشم عرفه ، ويصوغان نشر عرفه، وينشدان:

لولا ندى قاضي سرنديب بقيت في ذل وتعذيب...
من عدله بين الـــورى ألف بين الشاة والذيب
وكل ما يمنح مـــن نائل شيب بتأديب وتهذيب ص ٣٣٠

ويلاحظ مبالغة الراوي في وصف تأثر الفتى بكلام أبيه ، الذي استدر منه الدمع غزيرا ، وكل ذلك من أجل أن يعظم القضية في عين القاضي، ويكمل حيلته للكدية ، التي كان البكاء جزءا لا يتجزأ منها.

(١) انظر سورة القصص الآيات ٢٢- ٢٨

ويلاحظ أن بناء هذه المقامة يتشكل على النحوالآتي:

- رحلة الراوي إلى سرنديب ، هربا من جدب البصرة ، والتماسا لعطاء حاكمها، جريا على سنة الأدباء ، في امتياح الحكام والمتنفذين.

- يتمثل فضاء هذه المقامة في مكانين ، الأول : عام رئيس ، تحمله عنوان المقامة (سرنديب) ، والآخر: فرعي خاص هومجلس حاكم سرنديب (القاضي).

- تمثل هذه المقامة ضربا من محاولة الأب توريث الابن مهنته ، وتعليمه أفانينه ؛ فتشتمل على بطلين رئيسين " شيخ يعثر في خطاه ، قد احدودب مطاه "، والآخر" تلوه قوى الشظاظ ، مشتعل الشواظ" ص٣٢٥، فتبدوثنائية متضادة واضحة بين مظهر كل من الوالد والولد.

- يهيئ التضاد السابق لحدوث ثنائية متضادة في الأفكار ، فتثور بينهما مناظرة، يأخذ خلالها الوالد موقف المتحامل على المرأة ، موظفا ثقافته الدينية ، ومستعينا بدور المرأة في سير الأنبياء الملوك لدى بني إسرائيل ، وخاصة التوراتيين ، ليبدو في مظهر الواعظ ، وبين الكدية والوعظ صلة وثيقة .ونجد مؤاءمة مع العصر الإسلامي عندما يستعين ببعض ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، من أجل تأييد رأيه الشخصي في الإزراء بالمرأة.

فأما الولد فيأخذ جانب الانتصار للمرأة ، وأهميتها الجسدية للرجل، وينسب إليه والده أبياتا في الغزل تطغى عليها الحسية ، التي تعكس النظرة الدونية للمرأة بوصفها جسدا لا غير، ويتبع ذلك بأحاديثه النثرية ، التي تنهج النهج السابق.

- ثم يحاول الراوي إنهاء مقامته ، فيجعل الفتى يعول ويشتد في البكاء ، ويشكو الزواج وتبعاته ، وما يتطلبه من حاجات مالية ونفقات.

ويجعل القاضي يسرع في التأثر ببكاء الفتى ، فيمنحه ما يتزوج به " فرجعا عنه يضوعان عن عرفه، ويصوغان نشر عرفه "ص٣٢٩ ليتأكد النمط الأعلى للعلاقة بين الأديب والسلطان، فالسلطان يمنح والشاعر يمدح.

ولذلك خرجت المقامة عن هدفها في المناظرة بين مدح المرأة وذمها، لتحقق الكدية وتنتهي المقامة فجأة بشعر ينشدانه معا ، دليلا على التطابق بين الوالد والولد ، ونتوقف عند قوله ألف بين الشاة والذيب الذي يعبر به عن العلاقة بين الرجل والمرأة من وجهة نظره.

- يلاحظ اقتضاب التعرف في هذه المقامة؛ وله دلالته على الرغبة في إنهائها، ويبرر ظهور الابن في المقامة ،أنه يشير إلى التوريث لمهنة الكدية، ومن ثم إلى بقائها ، ويحدث . على النحو الذي يذكره الراوي بقوله: " فلمحته فإذا هو أبوعمرو يلقن فتاه نهاه ، فحصرت فكري في نصبه ودهاه"ص ٣٣٠

ويقترن هذا التعرف- كما ذكرنا- بالكشف عن الكيفية التي كان يورث بها أبوعمرو- بطل المقامة – ابنه مهنته ، ونهاه أي عقله وحيلته ، ويقرظ عقله ، ويذكر الراوي أن فكره يحصر ويقصر عن بلوغ مدى ذكاء البطل ودهائه.

المقامة العسقلانية (التوبة):ص٣٥١

يتابع ابن ماري في مقاماته النصرانية الحريري في مقاماته ؛ عندما ينهيها بالتوبة والعودة إلى الله، ويسبق ذلك بمقامة تكون بمثابة الوصية لابنه، في اختيار الحرفة التي تناسبه ليعمل بها بعد وفاة أبيه، ولا شك في أن تكون هذه الحرفة المختارة هي حرفة أبيه الكدية ؛حرفة بني ساسان؛ التي يتوارثها أصحابها جيلا بعد جيل .

تأثر ابن ماري في موضوع الوصية على وجه الخصوص بما ورد في أدب الحريري ، ولعله متأثر في ذلك بصنيع الحريري في مقاماته ، حيث أفرد الحريري المقامة الأخيرة وعنوانها المقامة البصرية لتصوير توبة أبي الفتح الإسكندري ، وصلاح أحواله ، وتنسكه ، وتزهده .[١]، ورفضه الكدية وأصدقائه القدامى وفي مقدمتهم الراوي رفضا تاما.

كما اشتملت المقامة قبل الأخيرة عند الحريري على فكرة الوصية ، وأسماها الحريري المقامة الساسانية ، حيث زيف فيها كل الصناعات ، وأوصى ابنه بتجارة لا تبور ، وصناعة لا تكسد ، وهي حرفة ساسان (الكدية).[٢]ووردت عند بديع الزمان الهمذاني في مقامته الوصية[٣]، وكذلك ما ورد في رسالة خالد بن يزيد المكدي ، التي أوردها الجاحظ في كتاب البخلاء [٤]

(١) انظرالحريري ، مقامات الحريري ، القاهرة ، مكتبة التقوى، ط ١، ٢٠٢١، المقامة البصرية ص٣٥٢

(٢) مقامات الحريري ،المصدر السابق ، ص ٣٤٦

(٣) بديع الزمان الهمذاني ، المقامات ، شرح وتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، دار الطلائع للنشر والتوزيع ، ٢٠١١ ، ص ٢١٤ .

(٤) الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق طه الحاجري، مصر ــ دار المعارف ، ط٥ ،ص ٤٦.

ويلاحظ أن هذه الوصية قد وردت في المقامة العسقلانية لابن ماري ، التي تشتمل على حبكتين قد خصصهما للكدية ، واحتوت الثانية منهما على فكرة الوصية، التي وردت في أدب المقامات من قبل ؛ كما أقحم على بنائها فكرة الوصية بالتوبة ، والعمل للآخرة ، التي لا تتناسب مع الحبكتين السابقتين ، وإن كانت تمهد للمقامة الأخيرة الخاصة بالتوبة في ضرب من المحاكاة واضح للحريري ، مع التباين التام بين الصنعة الفنية أوالمهارة والاقتدار الفني بين كل منهما.

الحبكة الأولى:

وتبتدئ بقول الراوي : " حدث يحي بن سلام قال : كابدت ما يعجز عنه الثقلان ، حتى حللت حمى عسقلان ، فوجدتها مدينة تتغانى نغمات الرخاء بضواحيها، وتتناجى نسمات الإيخاء بنواحيها فالتحقت بزمرة كالبدور في الظلم ، مافيهم إلا من هوفي كل علم علم ، فلم نزل نضرب في الأرض، ونمتاح كل خسيفة وبرد ، حتى عربنا جمع كثيف ، قد ابتهره شخص نحيف..."[ص ٣٥١]

فتشتمل هذه الفاتحة النصية على ما يأتي :

- أولا : الرحلة : وتقترن الرحلة – في الغالب – بأمرين:

* الأمر الأول : المعاناة والتعب فهي وريثة الرحلة في القصيدة العربية المؤسسة؛ لذلك نرى البطل نحيفا قد برته الأسفار ... و من قبله ظهر الراوي رحالة يصل إلى حمى عسقلان ، مرهقا بأوزار الارتحال يقول:"كابدت ما يعجز عنه الثقلان"[ص٣٥١] ويظهر مهارته البلاغية في الوصف أوبعبارة أدق تظهر مهارة المؤلف في وصف مدينة عسقلان بقوله : " فوجدتها مدينة تتناغى نغمات الرخاء بضواحيها ، وتتناجى نسمات الإخاء بنواحيها " [ص٣٥١]

وكان من الممكن أن تنتهي رحلته عند عسقلان ، لأن الرحلة – غالبا – تكون من مكان مجدب إلى مكان خصيب، وعسقلان مكان خصيب.

*الأمر الثاني : صحبة الأدباء من أجل أن يدمج الراوي نفسه في زمرتهم، ليظهر أديبا فقيرا، يطلب الثواب من خلال أدبه ، وهذه أيضا هي الصورة النمطية – في الغالب – للأديب أوالشاعر في ثقافتنا العربية الإسلامية .

فيعلن الراوي أنه تزود منها بالأصدقاء ، ليستمر في الرحيل، يقول "فالتحقت بزمرة كالبدور في الظلم ، ما فيهم إلا من هوفي كل عِلم علَم" ص٣٥١ ، وعندما يصف أصدقاءه وأصحابه في الرحلة بالأدب، فإنما يصف نفسه ، فكلهم أدباء يحيطون بعلوم شتى ، إلى حد تشبيههم بالبدور في الظلام ، شرفا وعلوا وعلما.

فقد أدمج نفسه في خدمة الأدباء ، وظهروا جميعا في الصورة النمطية للأديب من كونه محارفا ، قليل الرزق ، كثير الترحال، وربما تشي كثرة الجماعة المرتحلة بشيء عن حال الأديب في هذا العصر.

وتستمر الرحلة بقوله : " فلم نزل نضرب في الأرض ، ونمتاح كل خسيفة وبرض" ص٣٥١ ويحمل كلامه الدلالة على الارتحال في الأماكن المجهولة، والصبر على السفر ، والتزود بالقليل من الزاد،(فالخسيفة هي البئر)، (والبرض صغار النبت) (١)

ثم يكون لقاؤه بالبطل فجأة ، عندما يصادفون خلال السفر جمعا كثيفا ، " قد ابتهره شخص نحيف ، قد شخصت لمقاله الأبصار ، وهويقول : الإقالة من بنوة الحصار! وهل من يأسو من متعبة ، ويواسي من مسغبة ، حقيبة خالية ، وحشاشة ضاوية ، وورائي صبية يتخافتون جوعا ، ويتهافتون هلوعا " ص٣٥١

فيبدو البطل شخصا نحيفا ، ربما لكثرة أسفاره واغترابه ، فالفقر والرحلة والاغتراب- غالبا- قدر الأديب العربي- في ثقافتنا العربية - ويصف فقره بقوله: حقيبته خالية ، كما يشكو جوعه، ولكي يزيد من التأثير في المتلقين يذكر أن وراءه صبية ضعافا من الجوع ، لذلك يقول : يتخافتون جوعا

ثم أضاف الراوي إلى شخصية البطل شخصية أخرى شابا يافعا، تقاسمه البطولة ، هي شخصية ابنه، وهو على شاكلته أديب ، يجيد النظم والنثر، ويعرف سر الكدية ، وأنها مدح واجتداء ؛ فيخاطبهم شعرا بقوله:

"يا سادة أنعمهم جمة فكل جود من نداهم يروج

ومن هم الأعيان يوم الندى وفي المخافات لسد الفروج

(١) انظر ابن منظور لسان العرب ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين ، مادة خسف ،ومادة برض

صيرني الدهر لروعاته وطارق الغربة فقرا أموج... ص٣٥١- ٣٥٢

فيمدحهم بالكرم ، والشجاعة ، وسداد الثغور ، ويشكوالدهر ، الذي أخنى عليه ، والغربة التي أورثته الفقر، وهي صفات المكدي بشكل عام.

ويصلح المشهد السابق أن يكون مقامة تامة ، فلوتمت إضافة تعرف الراوي، لاكتملت الحبكة السردية للمقامة كاملة، ولكنه بعد أن حاز النوال، وإنثال عليه العطاء، يبدأ مقامة جديدة يمكن أن نطلق عليها المقامة الوصية.

الحبكة الثانية :

تبتدئ الحبكة الثانية في المقامة العسقلانية ، بقول الراوي : "ثم جلس- الابن - وانتهز الخلس ، وكل فهم اختلس"ص٣٥٢ ، وبعد أن جذب إليه الأنظار، ابتدأ والده بالسؤال ، وقال : " ما أتعاطى يا أبه ؟ فقد أشكل الأمر ، واشتبه"ص٣٥٢

وكان هذا السؤال حيلة فنية ، لكي تنشأ مقامة جديدة أساسها النظر في الفنون والصنائع ، وكشف عيوبها ، وبهرجتها في زمنه ؛ ليختار لابنه الطريق الصحيح الذي يناسبه، فما أن يسمع البطل (الشيخ) سؤال البطل (الشاب) حتى يتدفق منه الكلام " فانبرى كالغيث بعد ريث"ص٣٥٢

ويبتدئ الشيخ في تزييف الفنون والصنائع في عصره ، واحدة تلوالأخرى؛ ربما ليصور ما آلت إليه حال الفنون والصنائع في عصره، وربما ليقنع ابنه بصناعة الكدية ، مبتدئا بالطب ، فيقول: " فأما صناعة الطب ، فمورد يعب ، ومركب ينحب ،لعب بالمهج، وأرواح بأيدي الهمج، فلا كربة علاج تفرج، ولا فائدة فراج تفرج ، أجال فيه الجاهل ، وسجل بما أخطأ وعجل ، على مقادير القدر والأجل " ص٣٥٢.

فيرجح ما توقعناه من أنه يعيب تلك الصناعة في عصره ، فقد استولى عليها الجهال والهمج؛ فصار الطبيب بدلا من أن يتسبب في شفاء المريض ، يعجل بأجله وموته، ملقيا المسئولية على القدر والأجل؛ فإن الإنسان- كما يذكر- : "خلق من عجل ، كل إنسان أجل" ص٣٥٢ وبذلك يتناص مع القرآن الكريم عندما ذكر ذلك . (١)

(١) (خلق الإنسان من عجل) الأنبياء٣٧ ، (وكان الإنسان عجولا) الإسراء ١١ (لكل أجل كتاب) الرعد ٣٨ (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون) الرعد ٣٤

ويأخذ في تزييف العلم الثاني ، وهوعلم النجوم ؛ فيقول :" علم مرجوم، لا يحمد نجره والفرع، مقاول الديانة والشرع ، كبر حماله ، وكثر إمحاله ، وعم كذبه ، فاستهجن " ص٣٥٢ ؛ فقد شكك في منهجيته ومصداقيته بقوله : علم مرجوم، وهجنه بذكر موقف الشرع منه ، من حيث الزعم بالإخبار عن الغيب.

ثم يأتي إلى علم المنطق ، فيذكر عنه : " قل من به ينطق ، ناجمه يرجم بالزندقة، ولوترجم عن حقائق محدقة "ص ٣٥٢ ، فيشير إلى أمرين : الأول : قلة من يعرفه على الحقيقة ، والثاني : أن المشتغل به مهما يكن من تحريه الدقة في الأقيسة، يرمى برجوم الزندقة ، تعبيرا عما يصيبه من تبعات الاتهام من الجمهور أوالعامة.

ويصل إلى الأدب ، فيقرر كساد سوق الشعر في عصره ، لتفشي الجهل بين معاصريه ، وانحطاطهم، فقل من يعلوذهنه وثقافته لإدراك معانيه.

فيصف كساد الشعر وصناعته ، وأنه لا يروج ، ويعلل ذلك بسبب الجهل ؛ فيقول : " وأما الشعر فلا يشعر بمعانيه ،ولا يلتفت إلى من يعانيه ، رخص الجهل، فغلى مبتغيه ، وسفل الفهم ، فغلى مرتعيه"ص٣٥٣

وكأن أهل عصره قد اطمأنوا إلى جهلهم ، ورفضوا كل ما يسبب لهم المشقة. يعبر بذلك عن تردي الأحوال الثقافية في عصره ، فليست تتحمل صعوبة تعلم النحو، وليست تتفطن لمعاني الشعر.

ويلاحظ أنه أجمل في فني الأدب (الشعر والنثر)، ثم عاد – دونما ترتيب – ليفصل رأيه فيهما، ويرتكز خطابه عن الأدب وفرعيه على المدح للأدب ، والنعي على كساد سوقه ، وقد ظهر ذلك واضحا في حديثه عن الشعر ، ويظهر أيضا في حديثه عن النثر فيقول : " أما النثر فنثرت قيمه ، وبرزت بالتجهم ديمه، والمبرز يقصر على كلمة مطروقة ما لفحلها طروقة" ص٣٥٣ فقد انحدر مستواه الفني ، ولم تجد القرائح بجديد فيه.

ويلاحظ أنه – والمؤلف خلفه – يعيب القيمة الفنية للنثر في عصره ليحاول بذلك التعالي بنفسه على أبناء عصره ؛ ربما لإبداعه مثل هذه المقامات ، يريد بذلك التفاخر بقدرته على الإبداع في الفن النثري ، في وقت قل من يجيد الكتابة ؛ فربما يحاول إعلان تفوقه في كتابة النثر من خلال أدب المقامات.

ويقول عن الأدب بشكل عام: " حلية العرب فقد جيله ،وقل من يجيله"[ص٣٥٢] فيعترف للأدب بقيمته وأنه حلية العرب ، وميزتهم ،لكنه يذكر كساد الأدب في عصره ، عندما يأسى على فقد جيله.

ثم يأتي البطل إلى علم اللغة ؛ فيقول : " وأما اللغة فغريبها يستنكر ، وراصفها لا يشكر ، نصل خضابها ، وأمقر رضابها " [ص٣٥٢] ويلاحظ أنه يعيب الغريب ، ويذكر أن أهل عصره يستنكرونه . ويعيب الاشتغال بطلبه ، لكن المفارقة تكمن في أن أدب المقامات يعتمد اعتمادا واضحا على غريب اللغة ، وربما يشير بقوله : نصل خضابها وأمقر رضابها إلى شيء من فساد اللغة في عصره.

ثم يصل إلى الاشتغال بعلم النحوفيقول : " وأما النحوفمركب وعر ، ما لخيفه قعر ، فقصر فيه الراغب ، وطال المتجر والمشاغب ، لا شبع بفنه الساغب ، رفضه القوم رفضة القلامة ، وأحبوا الأسماء بغير علامة " [ص٣٥٣] ولصعوبته " لم يشبع بفنه الساغب"، الراغب في الإحاطة به ، ويعيب المشتغلين به فقد دخل فيهم من ليس يطلبه بحقه ، ولذلك (طال المتاجر والمشاغب) ، مما يشير إلى كثرة الخلافات النحوية التي تؤدي إلى صعوبته.

ثم يذكر أمرا خطيرا يقصد به معاصريه – في الغالب – عندما يقول : "رفضه القوم رفض القلامة..."، فلعله يقصد تفشي اللحن في كلام معاصريه ، وعدم اهتمامهم بقواعد النحو وعلامات الإعراب، أي أنهم ابتعدوا عن الفصاحة وتحري الإعراب في النطق.

ويذكر علم العروض فيقول : " خف ميزانه ، وثقلت أوزانه ، وقل طالبه"[ص٣٥٣] ، فيعيب معاصريه ، وقلة فهمهم ، ولذلك ثقلت أوزانه على متعلميه، ونتج عن ذلك أن قل من يطلبه.

وكذلك علم القوافي اقتصر على الخاصة ، ولم يعد لعامة طلاب العلم ، معرفة بالظاهر منه ، والخفي أيضا ، فقد قال عنه : " خصت قوادمه و الخوافي"[ص ٣٥٣] أي صار علمه مقصورا على الخاصة.

وعندما يمتد البطل إلى سائر العلوم العربية ؛ فإنما يكشف عن جانبين متوازيين من شخصيته ، يمارس بواسطتهم الكدية ، وبطولة المقامات ، أولا : كونه أديبا ، يجيد صناعة الأدب . ويحتال بواسطة التبرير فيه .

أما الشق الثاني الذي يتصل بهوية البطل الثقافية فهو علمه بالطب ، وما يتصل به من علوم ، تدور في فلكه مثل النجوم والمنطق وغيرها.

ويلاحظ أنه خلط الصناعات العملية مثل التجارة والصناعة والزراعة، بالصناعات الخاصة باللغة العربية ، فيدخل إلى الحرف والصنائع العملية منتقدا لها ، مزيفا الاشتغال بها.

فيذكر التجارة ، ويبهرجها بقوله : " وأما تعاطي التجارة فأثقل من نقل الحجارة ، معتصبة بالجسارة، مغتصبة بالخسارة"ص٣٥٣ ، فيبالغ في إظهار عيوبها؛ ليصرف ابنه عنها مستخدما في البداية أفعل التفضيل، رابطا بين ثقلها ونقل الحجارة ، فتقديمها في صورة حسية له قيمة حجاجية.

ثم يبالغ معتمدا على المجاز في تصويرها أقرب إلى المقامرة ، بقوله : "معتصبة بالجسارة " ، ثم يجعل مآلها إلى الخسارة ، وكأن مال صاحبها سيغتصب منه رغما عنه ، فقد قبح التجارة بمساواتها بالمقامرة .

ويعيب الزراعة بأن من يعمل بها" كثير المحل ، مقوص الرجل ، يرشو فراقه، ولو باقتاره وأخلاقه" ص٣٥٣ ، فعندما يأتي ذكر الزراعة يتذكر المحل والإجداب ، والبوار ، وسوء الحال ، التي تدعو إلى مفارقة الزراع.

ومن المفارقة أنه يعيب الزراعة مع أنه عاش في العراق (بلاد الرافدين) ، في البصرة حيث الزراعة وقرى السواد والخصب.

ثم يصل في النهاية إلى هدفه ، وهو مدح صناعة ساسان (الكدية)، فيقول: "وأما الصناعة التي لا تبور ، ويعمها الجزل والحبور ، ولا نبوة دهر ثائر ، ولا يعدم جدى مجير ، ولا يبرح في قوة عذير ، فصناعة ساسان مفشيها ، واللسان موشيها، حلتها الإلحاح ، حتى تستدر أخلاق الشحاح " ص٣٥٣

ويلاحظ أنه ابتدأ بالتشويق إلى تلك الصناعة التي اختارها لابنه، ويتضمن هذا الاختيار دلالة ثقافية، وهي بقاء هذه الصناعة مستمرة في المجتمع ، بعيدا

عن هذا المتخيل السردي ، فهناك موازاة رمزية بين ما يقع في الأدب خلال لغته ونصه ، وما يحدث في المجتمع خلال واقعه وأحداثه.

وتشتمل تلك الصفات التي يمتدح بها الكدية أنها لا تبور ، ومقترنة بالجزل والسرور ، وثمة إشارة ثقافية أخرى أنها لا تتعارض مع سطوة الحكام الجائرين، ولا مع تقلب الأحوال السياسية ، يحمل ذلك قوله : "ولا يخاف سطوة جائر ، ولا نبوة دهر ثائر " ص٣٥٣ .

ثم يقدم بعد ذلك شروط هذه الصناعة وآدابها؛ فيوصيه نثرا وشعرا، يقول : " استنبط الحجر ، ولا يعروإسهابك قصر ، أبكر بكور الخنزير ، واجسر جسارة الزير ، وفق جولان القطر ، وسيران الجنوب ، لا تدع دفن الفخاخ ، حتى ينتشر النقاخ، وتجاف المرقد ، وبت بليلة أنقد " الأنقد بالدال المهملة: القنفذ الذي يبيت الليل كله لا ينام، " يقال لمن بات غير نائم بات بليل أنقد" (١)، حتى يتلمح التحصيل، لتتبع الناقة بالفصيل ، ولا تذم حقيرا ولو أعطيت نقيرا، لا تعكر في البذل مادام عرضك نقيا ، والقادح بنزاهته شقيا"ص٣٥٣

فيرجع هذه الصناعة إلى ساسان ؛ فهو الذي أفشاها، ونشرها، ويبين له أن أداتها الرئيسة الأساسية هي اللسان ، ومن ثم تأتي المفارقة الحاصلة بذم الأدب ، في حين أنه يحتال على الناس بواسطته .

ثم يبين له أخلاق هذه الحرفة (الكدية) على النحوالآتي:

- الإلحاح حتى تستدر أخلاف الشحاح : ويعني هذا أنها تحتاج إلى تكرار وإملال وحيلة ، يمارسها المكدي حتى يستخرج العطية من البخيل.

- الجسارة : "ابكر بكور الخنزير واجسر جسارة الزير ، وفق جولان القطر وسيران الجنوب" ، ويلاحظ أن المكدي يستقي أمثلته من بيئة تتقبل ثقافة الحيوان النجس (الخنزير)، وربما كان في هذا شيء من مسيحتيه.

(١) انظر أبوعلي نور الدين اليوسي ، زهر الأكم في الأمثال والحكم ، تحقيق د محمد حجي، د محمد الأخضر، الشركة الجديدة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ م ، باب الباء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

ثم يعود إلى الثقافة العربية فيأخذ منها (جسارة الزير [١]) ، ممن هو على شاكلة امرئ القيس ، وعمروبن أبي ربيعة ، والعرجي وغيرهم من الذين يتجرؤون على زيارة النساء ، ومحادثتهن ، والسمر معهن، وكذلك يأخذ من البيئة العربية (القطر) الغيث، وريح الجنوب.

- طول الصبر : فهوينصحه بقوله " لا تثر المناخ حتى تعشوشب السباخ ، ولا تدع دفن الفخاخ حتى ينتشر النقاخ"ص٣٥٣ فيستمد أمثلته من البيئة العربية فالمناخ هنا الإبل ، ويضرب مثلا للصبر بالبدوي الذي يصبر على إبله ، التي يحسن رعايتها إلى أن تقوم من مرقدها ، مهما يكن طوله، حتى لونبت المرعى على دمن الثرى

– اليقظة : " تجاف المرقد وبت بليلة انقد، حتى يتلمح التحصيل لتتبع الناقة بالفصيل"، ويستمد أمثلة هذه النصيحة من البيئة العربية ، فيستحضر صورة القنفذ الساهر ليله كله حتى يصيد ، ويعبر عن إتباع العطية بالعطية مهما يكن شأن ما يعطي ، مثل اتباع الناقة بالفصيل.

- الرضا بالقليل : ويظهر من قوله "ولا تذم حقيرا ولوأعطيت نقيرا"ص٣٥٣ فيطلب منه أن يقبل كل شيء يقدم له ، حتى ولوكان نقيرا . والنقير الحفرة المستديرة في ظهر النواة [٢]، فإن له فائدة ، وقد ضرب بها المثل في القرآن الكريم (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أوأنثى وهومؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) [٣]

ثم ينظم نصيحته لابنه شعرا ، وتؤدي – داخل القصة – وظيفة تتعلق بسهولة الحفظ ، لكنها تكشف في الخطاب عن صورة البطل الأديب بالمعنى الكامل لدى العرب ، أي الذي يجمع الإجادة في النظم والنثر يقول:

بني جل في الأرض تلق المنى	وكن لكأس الود مذاقا
وكايل الأيام فعل امرئ	قد لامس الأهوال بل ذاقا
وأمكر بهزل ونهى واعظ	لتستدعي الأسماع إخراقا

(١) ابن منظور ،لسان العرب، مادة زور

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نقر

(٣) النساء١٢٤

وكن على الإحراق بردا وكن ... على عتوالبرد أحراقا
وزاحـــــــم الأيام في لذة ... وخذ من الأيام ما راقا
وعامل النـــــاس بأخلاقهم ... عذرا وإنكاثا وميثاقا
وكن على الأعداء في سلمهم ... سما وللأحباب درياقا
وعد لباب الرشد مســتفتحا ... وسد باب الغنى أغلاقا
فشيمة الأيام بل طبعـــــها ... أن تمنح الجدة أخلاقا [ص٣٥٤]

فتشتمل قصيدته على آداب الكدية وأخلاق بني ساسان، التي تكفل له النجاح في هذه الحرفة التي يوصيه بها. ولعله يتناص في ذلك مع قصـيدة أبـي دلـف الخزرجي التي أوردها صاحب اليتيمة ، ومنها قوله:

فنحن الناس كل النا ... س في البر والبحر
أخذنا جزية الخلق ... من الصين إلى مصر
لنا الدنيا بما فيها ... من الإسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ... ونشتوا بلد التمر
ويحك هذا الزمان زور ... فلا يغرنك الغرور
زوق ومخرق وكل وأطبق ... واسرق وطلبق لمن يزور
لا تلتزم حالة ولكن ... در بالليالي كما تدور [(١)]

وتعبر قصيدته عن عالم أصحاب الكدية ، وترجع فـي جـل معانيهـا إلـى القصيدة الساسانية ، بما فيها من ترغيب في الاحتيال والكدية والصبر، والمكـر بالناس ، لكن أصحاب الكدية يعتذرون عن تغير أخلاقهم وسوئها ،إلى تغير أخلاق الزمان وأهله.

ويلاحظ أن قوله (عد لباب الرشد) يتنافى مع ما في حرفة ساسان من مكر واحتيال وبعد عن الصراط المستقيم ، وربما كانت تمهيدا للمقطع الثالث من هـذه المقامة ، ولذلك نجده بعد أن تنجح كديته ، ويلقن الناس درسا في تغير الزمـان، والاعتذار عن احتياله ، يقول : " زمان رفع الخامل، ووضع السنان ،مكان العامل،

(١) الثعالبي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق د مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيرت، لبنان،ج ٣، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م ، القصيدة الساسانية ، ص ٤١٦ – ٤١٧.

فالعلوم مبذولة وأغراضها مرذولة ، والفضل نقيصة... فتلق الدهر بنسبه ولا تخرج عن نسبه"ص٣٥٤ – ٣٥٥

ويتم التعرف من الراوي على البطل ، وهو عقد ضمني بين الشخصيتين أن يعرف الراوي البطل بعلاماته، لتحقق نسبة الأدب والكدية إليه.

ثم لا يفضحه لتستمر اللقاءات بينهما ، ولكن في ظروف مغايرة ، يقول الراوي : " فلما امتد من آماده ، تلمحت الجمر تحت رماده، فإذا هو دويهية الفيحاء...تنكص الحوافل عن اعتباره ، ولا تلتحق الحوافل بغباره ،فمذ وهم العرفة قال : رحم الله من رعى الهتفة، فمنحته بما راج بيده "ص ٣٥٥

الوصية المقحمة على السياق :

وبعد أن يتم التعرف من الراوي على البطل ، نفاجأ بما هو غير ملائم لسياق هذه المقامة بوجه عام، ويشكل مفارقة لها .

وتتبين المفارقة واضحة في ختام المقامة، فبينما تدور أحداث المقامة في غمار الطمع بالدنيا، والمكر بأهلها في الحبكة الأولى عندما يكدي البطل بشكوى الجوع وقلة المال ، وكثرة العيال. وعندما يكدي في الحبكة الثانية ،التي تتضمن الوصية لولده، بواسطة إظهار علمه بضروب العلوم والحرف وتفضيل حرفة ساسان عليها .

نفاجأ بسؤال الراوي الذي يشفعه بالقسم عليه أن يخبره ، عما يدخر للرمس (القبر): " فقلت عزمت عليك بمخرج النفس من النفس ، إلا ما دللت على ما يدخر للرمس، فقال : خل الدنيا تخلية سائر ، وبمعارها ومعابها خابر ، ولا تخش إلا غيره ، والتزم بعض الأديرة ، والله باعثك على الخير وفارقني، وقصد الميرة" ص٣٥٥

والغريب أن البطل ينصحه بقوله : خل الدنيا تخلية سائروبمعارها ومعابها خابر، ولا تخش إلا غيره، والتزم بعض الأديرة، والله باعثك على الخير"ص٣٥٥ ،

وهذا القول يتناص مع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريبٌ، أَوعَابرُ سبيلٍ" (١).

وقوله أيضا في الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود " ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثلُ الدُّنيا كراكبٍ ظلَّ تحت شجرةٍ ثم راحَ وتركها" (٢)

وتظهر بجوار هذه الثقافة الإسلامية مسيحية البطل، وربما المؤلف ابن ماري نفسه؛ فعندما ينصح البطل راويته بحسن الختام ، نجده يقول له: (التزم بعض الأديرة) ، ومن المعروف أن الأديرة خاصة بالنصرانية وأن الدير عالم منفصل يعتزل فيه ساكنوه الدنيا ، فتظهر مسيحية ابن ماري في ختام المقامة ، التي لا ترى طريقا إلى التوبة والتكفير عن الذنوب، سوى البتولية ولزوم الدير.

ويلاحظ على هذه المقامة ما يأتي:

١- اشتمالها على ثلاث حبكات ، الذي يشير إلى تعدد البناء المقامي، وتركيبه واضطرابه.

٢- تكشف عن هوية ابن ماري الثقافية المعقدة ؛ ومن ملامحها :

- الأدب.
- المعرفة بالطب.
- المعرفة بعلوم الأوائل.
- المسيحية.

وبينما يمثل الأدب مكونا عاما للمثقف في عصر ابن ماري ، تمثل العناصر الثلاثة الأواخر؛ وهي من واد واحد ، ما يكشف عن الهوية الثقافية الخاصة لابن ماري.

---

(١) رواه البخاري. البخاري ، صحيح البخاري بشرح الكرماني، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي ، ط ٢ ، ١٩٨١ ،ج ١٥ ص٤٧١

(٢) أحمد بن حنبل ، المسند، تحقيق السيد أبوالمعاطي النوري وآخرين ــ بيروت ، عالم الكتب ، ط ١، ١٩٩٨ ، ج٢، رقم الحديث(٣٧٠٩) مطولاً،ص ٤٦

المقامة الأخيرة (الطائفية) : ص٣٥٧ ص٣٥٧

ويختتم ابن ماري مقاماته بالمقامة الستين ، وإذا كان قد عنونها بالطائفية؛ فإنه قد أفردها– ربما اقتداء بالحريري – للتوبة، وحسن الختام ، الأمر الذي صدر عن الحريري بسبب اعتقاده الجرأة الدينية المتمثلة في كتابته للمقامات، التي اعتذر عنها كثيرا في مقدمة مقاماته ، وحاول أن ينفي عن صنيعه خلالها فكرة الاتهام بالكذب والاختلاق، (١)

وربما كان الحريري أكثر ذكاء حين جعل عنوان مقامته الأخيرة البصرية، إشارة إلى موطنه الأصلي البصرة ، لكن ابن ماري جعل مقامته الأخيرة الطائفية ، التي لا تشير إلى شيء من العراق.

وتتسم هذه المقامة بأمرين بارزين لا نجدهما في غيرها هما:

- الأول : الطابع الإخواني أوالصداقة التي تجمع بين الراوي والبطل ، حيث نجد الراوي يتشوق إلى البطل ؛ يقول الراوي : " بقيت حينا لا آنس لأبي عمروعرينا ، ولا أجد عنه مبينا ، ولا أجتلي من وشائعه غرة، ولا أرى من روائعه حلوة ولا مرة ، فأضمرت لفقده ، والبعاد ما يضمره الزناد " ص٣٥٧

وربما يتناص قوله (ويضمره الزناد) مع قول أبي نواس المتأثر بفكرة الكمون عند المعتزلة في قوله:

كمن الشنآن لنا فيه ككمون النار في حجره (٢)

فقد أضمر الراوي أشواقا حارة للبطل، وربما يرجع ذلك إلى التأثر بالحريري، الذي عني بإضفاء الطابع الإنساني على العلاقة بين الراوي والبطل ، كما عني بالتمهيد لانتهاء مقاماته بمرض البطل ، واختتامها بتوبته في المقامة الأخيرة .

- الأخير: خلوهذه المقامة من الكدية ؛ فعلى الرغم من أنها تتضمن وعظا على غرار غيرها من سائر مقامات ابن ماري ، فإن البطل لا يأخذ على موعظته أجرا كما يفعل في كل مقاماته ، ويختتمها بالتوبة ، وهدفه هذه الحال يحاكي – لا

(١) الحريري، المصدر السابق ، ص١١.

(٢) أبونواس، الديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة ، مطبعة مصر، ١٩٥٣ ، ص ٤٢٨

محالة – المقامة الأخيرة من مقامات الحريري [١] وربما تكون الوصية المقحمة من البطل للراوي بالتوبة والتزام أحد الأديرة تمهيدا لها.

ويمكن أن نرى المكونات البنائية للمقامة على النحوالآتي:

- <u>اللقاء بين الراوي والبطل :</u> ويصوره قول الراوي : " فبينا أنا بالطائف أسحب جلباب الطائف ، لألتقط نخب الطرائف ، واحتفظ معارف الطوائف ، عاينت جمعا لا تشق حاشية برده ، ولا يدرك عدد شيبانه ومرده ، فاتلعت نحوتلعته ، لأتجرع شرب شرعته، فإذا هوأبوعمروعليه لبوس الرهبان ، وهوينضنض نضنضة الثعبان، وصل يطبع الأسجاع بنواهي، ويرصع الأوضاع بدواهي ، يتأفف تأفف الحزين ، ويظهر ضراعة المستكين ويقول"ص٣٥٧

فيذكر الراوي أنه كان يجوب ليلا في دروب الطائف ، كأنه الطائف أي الحارس الليلي ، أورجال الدرك ، يبدوفي هيئة الأديب الذي يحاول أن يجمع من كل فن بطرف ، وكلمة الطوائف – وإن كانت تستخدم في دائرة الثقافة الإسلامية – فإنها أكثر استعمالا في دوائر الثقافة المسيحية.

ثم يصف جمهوره بأنه جمع حاشد ، يحيط به كالبرد يصعب شقه، وقد كثر حوله الشباب والشيب، وذلك لأنه كان يعظ ، فقصده الراوي " فإذا به أبوعمرو عليه لبوس الرهبان وهو ينضنض نضضة الثعبان. "

ويلاحظ أن استقبال الراوي أوتلقيه لشخصية البطل ، كان وفق أفق توقع سابق تشكل على مر المقامات، فيراه كالمعتاد مكارا محتالا ، وإن كانت عليه ملابس الرهبان ، فإنه يفعل كما يفعل الثعبان ، عندما يغير جلده ويتلون ، ولذلك ترد الأوصاف السلبية : الثعبان – صل – دواهي... وغيرها.

ويذكر صراحة أن ذلك من دواهي خدعه ، " يتأفف تأفف الحزين ، ويظهر ضراعة المستكين " فظن الراوي ذلك من حيل الكدية ، ولم يدرك أنها من حيل الخطابة والعرض الأدبي ، ولم يعلم حقيقة البطل؛ لأن الراوي هنا من نوع الراوي المشارك في الأحداث؛ الذي يتوقف علمه عند علم الشخص الفاعلة،

(١) انظرالحريري ، المصدر السابق ، المقامة البصرية ص ٣٥٢

وليس من جنس الراوي العليم ، الذي يعلم القصة من بدايتها إلى نهايتها، ويعلم ما تكنه صدور الشخصيات وما تخفيه [١]

العرض الأدبي : يورده الراوي على النحوالآتي فيقول : "علام تأخذون في الإباحات ، ولا تهلعون لعقد المناحات ، وإلام لا ترتدعون لفاضحة تفدح ، ولا تجرعون لقارعة تقرع ، ولا تفزعون لضارعة تردع ،

وحتام ... تنسون المنون ، وعيسى لكم كالآية ، وتضلون بسبيلها ، ورسلها إليكم متتالية ، وتهوون الدنيا وهي لكم قالية ، فأيقظوا من السهومقلة لاهية ، وازجروا من اللهوفطنة زاهية ، فهل من آذان سامعة لقوارع الزجر؟ وعين هامعة لبوار الأصل والنجر ، فانتبهوا من سنة الغفلات ، انتباه من ماله من الحين فات " ص ٣٥٧ – ٣٥٨

ويلاحظ أنه يعتمد على الأساليب الإنشائية ، التي تشرك المتلقي في القضية التي يحاورهم فيها ، ولكنه بذكاء الخطيب ينوعها ، مبتدئا بالاستفهام (علام ... حتام ...) من أجل تقريع المتلقين .

ثم يستخدم الأمر بقوله (فأيقظوا ...) ، ويعود إلى الاستفهام ثانية (فهل من آذان سامعة ؟) ، ثم إلى الأمر (فانتبهوا من سنة الغفلات) ، أي أنه يراوح بين الأساليب الإنشائية ، لكنه لم يخرج عن غرض واحد وهوتقريع المستمعين ، وتأنيبهم ، وكانت تلك من قبل إحدى حيله للكدية ، والاستجداء، عندما يحاول نقل المتلقي من حالة القوة والتماسك إلى حال الضعف ، التي تتناسب مع مشاعر الرحمة والعطاء، لكنها في هذه المقامة لا تخرج عن كونها جزءا من بلاغته.

وتظهر مسيحيته عندما يذكرها عرضا دونما إصرار ؛ فيذكر المسيح " وعيسى لكم كالآية ، وتضلون بسبيلها ، ورسلها إليكم متتالية " ، وربما كان يقصد بقوله ورسلها تلاميذ المسيح ، وقد وصفوا في الثقافة المسيحية بالرسل.

ويتبع موعظته السابقة أو خطبته التي تكشف عن بلاغته في النثر الفني بقصيدة في الزهد ، وتبدو القصيدة على النحو الآتي:

---

(١) جيرالد برنس ، قاموس السرديات ، ترجمة السيد إمام ، القاهرة ، دار ميريت ، ط١ ، ٢٠٠٣ ، ص ١٣٤ مادة الراوي

أخل الحجاج واللدد وأمن لأخراك العدد
فمنهج الحق جدد والأمن أمر شهر
فصحبة الدنيا نهب تسلب جبارا غضب
وكم من قوي صرعت ومن خشوم أضرعت
ومن قريع قرعت فعاد مسلوب السير
ما بك شبابا رحلا وخضب عيش أمحلا
وقد أمر ما حلا وما قضيت من وتر
عقبى وجود عدم وأثر روح ندم
وبالمنايا ترجم والجب بئس المنتظر
تخترم القيولا فلا ترى مقيلا
ولوأطلت قيلا والخطب عقباه خطر
فاعص هواك وارتدع ولا تكن غرا خدع
بشعب عيش منصدع بكف صرف وقدر
واخلع عذار الشنع والبس شعار الورع
يا مبدعا في البدع من قبل تصويح الزهر
وانتزف الشئونا وادكر المنونا
وامتحن القرونا بفكر شهم قد نظر
فخفف الأوزارا وطهر الإزارا
إن الصفاء زارا وليس بد من سفر
ما هابت الأقدار ملكا له مقدار
من له اقتدار وصار رجما لسقر[ص٢٥٩]

ولا تشتمل الأبيات السابقة على ثقافة مسيحية خاصة ، فإنها تشتمل على معان ذات قواسم إنسانية عامة ،تحض على الخير ، وتنهى عن الشر ، والزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة بل إنها تشتمل على معان إسلامية مثل قوله : "فنهج الحق جدد "، فإنه يذكر بالصراط المستقيم ، وقوله "اعص هواك وارتدع "يتفق مع النهي عن الهوى في الإسلام ، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" النازعات ٤٠-٤١

وعندما يذكر القرون السابقة مثل أقيال حمير وعاد وكل ملك له مقدار؛ فقد ورد ذلك في القرآن الكريم من الاعتبار بذكر قبائل العرب البائدة ، وهلاكها ، بسبب معصيتها الرسل، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ ﴾ [١] وكذلك عندما يذكر سقر ،فقد وردت في القرآن الكريم في قوله : " وماأدراك ما سقر"[٢]، وكذلك قوله: لم تعط ميثاق البقا وما من حميم وقى

فإنه يرجع إلى المعاني الإسلامية التي تفيد بأن لكل أمر أجله ، وأنه إذا جاء أجلهم لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون ، وقوله تعالى:" ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون"[٣]، وقوله " وما من حميم وقى " فإنه يتناص مع قوله تعالى : (ولَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) [٤]

ويظهر التناص أيضا في قوله :

لكل شخص ما جنى بقدر أنواع الثمر

الذي يتناص مع قوله تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) [٥]ويتناص أيضا مع قوله تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه) [٦]

وعندما يختتم قصيدته بقوله :

يصفح في الممات صفح مليك مقتدر،

فهو يردد معاني إسلامية عن عفو الله وصفحه ، وأنه كما وصف نفسه في القرآن الكريم مليك مقتدر [٧].

ثم يتبع مربعاته الشعرية السابقة بموعظة نثرية يرد فيها مثل قوله " يابن آدم تفرح بقشيبك، ولا تفزع لطلائع مشيبك"ص٣٦٠ .

---

(١) الفجر ٦-١١]

(٢) المدثر٢٧

(٣) الأعراف ٣٤

(٤) المعارج ١٠

(٥) البقرة ٢٨٦

(٦) فصلت ٤٦

(٧) انظر سورة القمر ٥٤ -

وعندما يذكر أن البشر إلى الله (ورد وصدر) ، يتبنى معاني إسلامية تذكر أن الله قد خلقهم وإليه يعودون ،ففيها معنى قوله تعالى : (إِنَّا لِلَّـهِ وإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعُونَ) [١]. كما تظهر إفادته من القرآن الكريم عندما يقول": ولا يفيد جحود ومن جوارحك شهود[٣٦٠]" وتتناص مع القرآن الكريم في قوله تعالى : "يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون" [٢].

ويلاحظ أن هذه المقامة تخلومن الكدية ، فعلى الرغم من تأثير وعظه، ونشاط الناس لإعطائه، فإن البطل يرفض عطاءهم ؛ يذكر الراوي في سرد سريع تتوالى أفعاله : "فما من القوم إلا من أخذ نفسه باللوم ، ورق لهرمه ، ورثى لعدمه، وأسجل له من ماله، فرضا وافرا ، ليعيد وجه أمانيه مسافرا. فأبى المنحة، ونهض بالعكاز والسبحة " ص ٣٦١.

وعندما يتعرف عليه الراوي ، ويسأله ويحاوره قائلا : " عزمت عليك برافع المحل ، ومخرج العسل من النحل ، ما منعك عن خدع البخل ؟"ص٣٦١ ؛ فيقدم هذا القول تبريرا أخلاقيا لكدية البطل في مقاماته السابقة ، هل كان بطلا صعلوكا ، ينتقم من البخلاء الأغنياء، وينتصر للمهمشين، وينتقم من لؤماء عصره .

يجيب البطل معللا توبته ورفضه الكدية بقوله : " ليل أسفر ، وصباح سفر ، فنعم الزخر من تزود للآخرة، فقلت : أوصني وصية تبرز في حلية الصدق، وتبرز في حلية الحق ، فقال : نقح لسفرك زاد سفرك، واخلص لربك في سعيك ، خلاصة قلبك ونظرك" ، واختتم المقامة بقوله :" وضرب على يدي بفراقه ، ضرب من حن إلى عراقه"ص٣٦١.

فإنها أول مرة يرفض فيها البطل المكدي أجرا على عرضه الأدبي، وقد امتنع عن الأخذ منهم، بعد أن انطلت حيلته ، إن كان قد نواها، وتهيأ كل واحد منهم لمجازاته على حسن وعظه ، ولكنه رفض " ونهض بالعكاز والسبحة " ، وهما يرتبطان بالدير ، قال المتنبي في الدمستق :

ويمشي به العكاز في الدير تائبا وما كان يرضى مشى أشقر أجردا [٣]

---

(١) البقرة ١٥٦

(٢) النور ٢٤

(٣) المتنبي ، الديوان، بشرح البرقوقي، القاهرة ، مؤسسة هنداوي ، ط ١ ، ج ١، ٢٠١٤ ، ص٣٨٢

فقد نصح البطل الراوي في المقامة العسقلانية أن يلتزم بعض الأديرة[ص٣٥٥] فالعكاز والسبحة ، يرتبطان بالشيخوخة ، وإدبار العمر، وهما شعار التدين الذي يتفق مع اقتراب الأجل.

فعندما استحلف الراوي البطل بقوله : " عزمت عليك ..." أعلن عن سبب زهده ، وهوأن شبابه قد مضى ، وشيبه قد ظهر.

ومن اللافت للنظر أن الراوي يقبل على البطل طالبا منه الوصية ، وهذا يدل على أمرين : الأول : إدراكه صدقه داخل الحكاية ، الأخير : انتهاء المقامات داخل الخطاب ، وتبرز التوبة خاتمة المطاف، كذلك كان شأن بطل الحريري في مقامته الأخيرة.

ويبدو من نصيحته الإيمان بالآخرة ،والاستعداد لها ، وكذلك من تشبيه الموت بالرحلة أنها معان إسلامية ، وقد ورد ذلك في حديث نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم " قد ورد في وصية الرسول لأبي ذر الغفاري قوله : يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف الظهر فإن العقبة كؤود، واخلص العمل فإن الناقد بصير " (١)

وتنتهي المقامة بقوله: وضرب على يدي بفراقه ، ضرب من حن إلى عراقه، وتنبئ طريقته التي سلم بها على الراوي مودعا صديقه الذي اصطحبه تسعا وخمسين مقامة، أن لا لقاء بعد ذلك ، فالمقامات ستنتهي، والكتاب قد اكتمل.

أما قوله : ضرب من حن إلى عراقه ، فتنبئ عن اشتياقه إلى الرجوع إلى أصله ، وقد يكون ذلك الأصل موطنه بلاد العراق ، وقد يكون ذلك الأصل عرقه الذي وشج إليه ، وهو الثرى.

فتتأكد فكرة العودة إلى الأصل ، واكتمال الدائرة ، فقد خرج من بلاده بطلا مرتحلا مكديا ، وعلى هذا النحو يعود إلى وطنه لكنه هذه المرة بطل تائب ، نشأ من الثرى، وتكتمل الدائرة أيضا بالرجوع إليه ، وفي كلتا الحالتين إنتهاء للمقامات، بما يسمى (حسن الختام) الذي يحرص عليه الإسلام والمسلمون.

---

(١) انظر طه عبد الله عفيفي. من وصايا الرسول ،القاهرة ، دار التراث العربي ، ١٩٨١ مج ١ ، الوصية الحادية والثلاثون ، ص ٧٦٧

الفصل الثاني: المقامات الطبية:

ويلاحظ أن ابن ماري قد وظف معرفته الواسعة بالطب وعلوم الأوائل في مقاماته؛ واتخذ ذلك وسيلة لإظهار معرفته بعلوم عصره النقلية والعقلية على السواء ، فإذا كانت العلوم النقلية يشاركه فيها غيره من كتاب المقامات ، وتمثل ركنا أساسيا من أركان ثقافة الأديب، ومعرفتها ضرورية لممارسة حرفة الكتابة الفنية فإن معرفة الطب مما يتفرد به ابن ماري عن جل المقاميين قبله وبعده.

وسنتوقف بالتحليل السردي لتلك المقامات التي اعتمدت على المعرفة بالطب وعلومه أساسا لبناء مضمونها ؛ لنوضح الكيفية التي وظفها بها ابن ماري خلال بنائه السردي المكرس لغرض الكدية؛ فما المقامة السردية إلا حبكة قصصية تعتمد على الراوي والبطل والعرض الأدبي والتعرف من أجل التقديم الفني لظاهرة الكدية. ولم تكتسب المقامة سرديتها إلا بعد اشتمالها على الكدية.

المقامة السابعة (الدمشقية) : ص٧٣

تكشف هذه المقامة عن النشاط العلمي الذي عم أرجاء الدولة الإسلامية ، وأسهمت المساجد الجامعة في إذكائه؛ ومنها المسجد الأموي في دمشق ، ويمكن تحليل بنائها السردي على النحو الآتي:

- الراوي: ويبدو من خلالها – كعادته في سائر المقامات – أديبا ، يلتمس المسامرة ، ويبحث عمن يماثله في طلب الأدب ، وربما يشير ذلك إلى وجود الأندية الأدبية بكثرة في هذا العصر ، وربما كانت المساجد هي إحدى فضاءاتها، الذي تعقد فيه تلك الندوات ، يقول الراوي : " حدث يحيي بن سلام قال : انتظمت ورفقة كالنجوم ، نفثاتهم لأبالسة الهموم كالرجوم ، بأخلاق كالماء النقاخ، وبديهة أجول من الرخاخ، وكنا عنوان كل وادي أدب يعقد ، ومحك كل بيت قريض ينشد .. . لومر بنا سحبان لأقر بالإعجاز، ولم يدر كيف يطابق الصدور بالأعجاز؟ فخرجنا يوما إلى جامع دمشق ، لنحقق صفاته ، ونشاهد رونق تربه وصفاته ، فعاينا ما يقصر عنه الطرف ، ويقصر عليه الظرف ، وإذا في صدر أروقته ، حلقة كثيرة الرخام ، بها أخلاط الأنام ، فشققتها بعزم ، يسبر أبكار الأمر وعونه، فتلمحت فتى "ص٧٣

فيبدو من خلال هذا التقديم أمران:

- الأول : أن الراوي أديب يرتاح إلى رفقة من الأدباء ، وصف صحبتهم بأنها تدفع الهموم ، كالرجوم التي تدفع الشياطين ، وهنا يتناص مع قوله تعالى : (ولَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) [١]؛ ووصف أخلاقهم بالصفاء كالماء، وهنا يشير إلى ما شاع في هذا العصر من العناية بأدب الصداقة والصديق ، فقد حلت الصداقة والإخوانية – في الغالب– محل العصبية القبلية.

ويتجلى أدب تلك الرفقة (الراوي وأصدقائه) ، في كونهم يقصدون أودية الأدب ، وأنهم يتنافسون في الفصاحة ، التي يفوقون بها سحبان[٢]، وثمة إشارة في النص السابق إلى فكرة الإعجاز ؛ وفي هذا إيماء إلى ما يدور في هذا العصر، من جدل كلامي حول الكلام المعجز، وذكر أنهم يتفوقون على غيرهم في البلاغة والصنعة الفنية القائمى على البديع ، ورد الأعجاز على الصدور . [٣]

- المكان : وهوجامع دمشق ، وربما يقصد به المسجد الأموي الجامع الذي تتفرد به دمشق ، وكان الراوي ورفاقه متشوقين للتحقق من صفاته ، ومشاهدة ما نقل إليهم عنه.

وكما يتصف الراوي بحب الأدب وطلبه ،فإنه يتصف – شأنه شأن أبطال المقامات – بحب الرحلة، فقد قصد دمشق ، ليتعرف على معالمها ، وبخاصة جامعها الأموي بما اشتهر به من عمارة متميزة " فخرجنا يوما إلى جامع دمشق، لنحقق صفاته، ونشاهد رونق تربه وصفاته ، فعاينا ما يقصر عنه الطرف، ويقصر عليه الظرف ، وإذا بصدر أروقته حلقة كثيرة الرخام ، بها أخلاط الأنام، فتساقت إلى اختبارها القرونة ، فشققتها بعزم يسبر أبكار الأمر وعونه، فتلمحت فتى.."ص٧٣

---

(١) الملك ٥

(٢) أبوالفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال ،الأستانة ، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة ،١٣٥٥ هـ ، ج ١، ص ٢٤٩ حيث ورد المثل (أخطب من سحبان وائل)

(٣) انظر ابن المعتز أبوالعباس عبد الله، كتاب البديع شرح وتحقيق عرفان مطرجي، بيروت ط١ ، ٢٠١٢ ، مؤسسة الكتب الثقافيةص٦٢ .

فأشار إلى عمارة الجامع ، وارتفاع قبابه ، بقوله : يقصر عنها الطرف، وأشار إلى فضائه بقوله : رونق تربه وصفاته، كما ذكر أروقته المبنية بالرخام . ويكفكف نفسه التواقة للرحلة المتصفة بحب الاستطلاع الذي يظهر في قوله :" فتاقت إلى اختبارها القرونة"، يقصد نفسه التي بين جنبيه ، التي تتوق إلى معرفة الجديد من الفضاءات، ويؤكد حب استطلاعه بقوله : " فشققتها بعزم يثير أبكار الأمر وعونه" ، فقد صور قوله : فشققتها إلى صعوبة اقتحام الزحام ، وقد ذكر من قبل بأن في المسجد " أخلاط الأنام " واحتاج في شق هذا الزحام إلى استجماع عزمه بكل خصائصه لقوله : "فشققتها بعزم يسبر أبكار الأمر وعونه".

فتتكفل تلك المقدمة بتوضيح ما يأتي :

- خصائص الراوي.
- وخصائص الفضاء الذي تدور فيه أحداث المقامة ، ويلتقي خلاله بالبطل .

حيث تدور أحداث الكدية ويقدم العرض الأدبي:

ويبدأ الراوي في تقديم البطل بقوله : "فتلمحت فتى تسند إليه الظرافة ،وتعرب عنه اللطافة، عليه سحق هدم لا يواريه، ينذر بصلود واريه، وهو ينطق بلفظ أرق من الشمول والشمال، له على القلب أي اشتمال، فسمعته يقول، وهوبين جموعه يجول: عندي دواء ينفع من عسر الولادة ، وهو في صدر الأدوية كالقلادة "ص٧٣_٧٤.

فيبدوالبطل فتى أديبا ،يمتاز بالظرف واللطافة، وهذا ما يبدومن سيماه، لكن الفقر يستبد بمظهره ؛ فملابسه سحق أهدام، تستره بالكاد.

ويتدخل الراوي ليعلل ذلك بقوله :" ينذر بصلود واريه"، يقصد سوء حظه، أوبؤس جده، ثم يصف الراوي فصاحته ، فيجعل ألفاظه أرق من الشمول، أي الخمر، وأرق من الشمال، أي رياح الشمال.

ويبئر أيضا فصاحته ؛فهي من وجهة نظره لها على القلب كل اشتمال، أي أن فصاحته مؤثرة في القلوب، تستولي على ألباب السامعين.

ثم تتكشف لنا خصائص البطل ، فهوطبيب مكد، يحتال في هذه المقامة بواسطة الطب، وقد لخص حيلة الكدية في عبارة نثرية ، لا تكشف عن بلاغة زائدة عن بلاغة المقامات ؛ لأن مؤلف المقامات لم يراع فيها تنوع الأسلوب من

شخصية إلى أخرى ، أومن مكان إلى آخر، أومن موضوع إلى غيره، وإنما كتبت بأسلوب واحد، وبمستوى لغوي لا يتغير.

لكن العرض الأدبي _شأن سائر المقامات_ لابد أن يجمع بين النثر والشعر، وفي هذه المقامة يزيد الشعر، كثيرا عما قدمه من النثر الفني ؛فقد ألقى البطل _كما يروي الراوي_ على المتلقين قصيدة طويلة، تبلغ أبياتها ثمانية وعشرين بيتا، لكي يظهر براعته في الإنشاء، وذلك يحيلنا إلى المؤلف الأصلي للمقامة (ابن ماري) ، الذي يبتغي من ورائها أن يظهر أمام معاصريه في شكل الأديب الكامل ، الذي يجمع بين الإجادة في فني اللغة العربية الشعر والنثر.

ويقدمها الراوي على هذا النحو ، وأنشد البطل :

عندي علوم وعقاقير وللإفادات دساتير
تحار في كشف تراكيب ما ألفت في الطب النحارير
تكاد أن تخبر أنى بدت مكنة إخباري القوارير
عندي معاجين لأوصافها لم يرها كسرى وسابور
فيها شفاء عقم من لم تلد فذكرها في الأرض مبتور

ويرد خلالها قوله:

حشائش الآفاق جمعتها ولم يشب حزمي تقصير
وكدني في الصبح والليل تد وير على الكتب وتقرير

ويبدو من تلك الأبيات فخره بأنه قد بلغ في الطب شأنا كبيرا، فعنده علوم وعقاقير ودساتير وتراكيب، وما ألفت في الطب النحارير من الأطباء والعلماء، فضلا عن التراكيب التي استطاع هو أن يركبها في معمله، وكذلك المعاجين ، ويفخر بأن ما لديه من علم الطب، يفوق ما لدى الفرس الأكاسرة (كسرى وسابور).

وكما بذل جهدا في جمع ذلك العلم ، وذكر أيضا جهوده في صنع المعاجين والتراكيب ، فقد جمع الأدوية من مظانها، حيث يقول :" حشائش الآفاق جمعتها"، فالحشائش والأعشاب ذات الخصائص الطبية كانت في صدارة الطب في ذلك العصر، ومن خلال هذه الأبيات يبدو البطل طبيبا عالما مجتهدا ، يرتحل في الزمان والمكان من أجل تحصيل علم الطب.

ثم تمتد أبياته لتكشف عن الجانب الأهم من شخصيته، وهو أنه مكد محتال ، ويبدو ذلك واضحا عندما يبدأ في ذم المقادير التي أخنت عليه ، ولوم الأيام التي تغيرت به ،وكذلك ذم معاصريه، تمهيدا للاستماحة والطلب الصريح ، والكدية الواضحة في قوله :"

أصبحت ما بين أناس لقي ما فيهم في الجود مذكور
قوم فلا فضل ولا نائل مناظر رائعة وزور
كأنهم من فرط تقصيرهم في رتبة النطق تصاوير" ص ٧٤_٧٥

وبعد أن ذم أهل زمانه، وذكر أنهم لقي أوهمل لا قيمة لهم ، وأنهم نسوا القيم العربية الأصيلة من الجود ، فليس لهم فضل ولا نائل ، وأنهم مناظر زائفة، وصور مزيفة وزور.

ثم يذكر في البيت الأخير فضيلة من فضائل العرب ، ترتبط بكونه أديبا، عندما يصف قومه بأنهم مجرد تصاوير، لأنهم مقصرون في رتبة النطق ، ربما يقصد في رتبة البلاغة والتعبير الفني ، وربما يقصد في رتبة الإنسانية ، التي من خصائصها النطق، ويظهر الربط بين الحضارة والفصاحة في قصة ذي القرنين عندما وجد في إحدى رحلاته في مشارق الأرض ومغاربها قوما (لا يكادون يفقهون قولا) (١)

ثم يعرج البطل على ذم المقادير، وكأنه ينعي سوء جده، ويوضح أن حظه في هذا الزمان لا يكافئ علمه ومهارته فيقول:

إذا أراد الله أمرا فما يفيد تقدير وتدبير
ولن ينال المرء ما يبتغي يوما وتنهاه المقادير
لهفي على رونق عيش الذي ولى وعفته الأعاصير
أيام لا أعلم من ثروتي من أين تأتيني الدنانير
ولي من الدهر وأبنائه حظ وتعظيم وتوقير
فاليوم لا نبل ولا حرمة تجدي ومحض الدهر تكدير
بالجهل يحظى المرء في عصرنا وذو النهى في الناس مهجور ص ٧٤_٧٥

(١) الكهف٩٣

فيؤكد على أهمية القدر وتأثيره في تغيير مكانته ، فكما ذكر في البيت الثاني أن المرء لا يستطيع أن يعاند الأقدار، ففي هذا العصر لا ينفع العمل ، وإنما ينفع الحظ.

ثم يتحسر على الزمن الماضي ، وينعي تغير الأيام عليه، فقد نقله من حال الثروة ،التي كانت تنثال عليه وكان وقتذاك موضع اهتمام من أبناء عصره، واحترام يصف ذلك بقوله :"حظ وتعظيم وتوقير".

ويبلغ هجاؤه لعصره مداه في البيت الأخير ،الذي يشتمل على المفارقة بين حال الجاهل وحظوته لدى معاصريه، وحال أولي الألباب والنهى الذين يهجرهم الناس على الرغم من عقلهم وعلمهم.

ثم يخلص البطل الأديب الثائر الشاعر ، إلى الكدية الخالصة ، يقول :

في ظاهر الإنسان عنوان ما يخفى من الضر وتفسير
وحالتي تخبر عن قصتي بأنني في البرد مقرور
هل همة ترفع ما نابني لها إلى العلياء تشمير
بفروة تدحض برد الشتا ظاهرها وشي وتحبير [ص ٧٤_ ٧٥]

فيحاول تحريك همم المتلقين بالأسلوب الإنشائي الاستفهامي التحريضي، لكي يظفر برجل يسعى– وفق القيم العربية– إلى العلياء ، بخلاف معاصريه، فيعطيه ما يقيه برد الشتاء ، فهولا يطلب – على الرغم من طبه وبلاغته– سوى فروة ظاهرها وشي وتحبير، وباطنها أنها تدحض عنه برد الشتاء.

ويبئر الراوي نيابة عن المتلقين ،قيمة أدبه وبالغ تأثيره عندما يذكر " قال الراوي : فلما فرغ من در لفظه النظيم، وحاورناه بالحكيم، ورمي من الفراء المغشاة ، والجباب المحشاة، ما ناء بحوله، واستفرغ أطايب قوله"[ص٧٥] ،فقد انطلت كديته على المتلقين.

ويلاحظ أن الراوي ينوب عن المتلقين في وصف بلاغة البطل عندما يذكر أن نظمه كان من الدر، وأن مكانته قد تغيرت عندهم ، وصاروا يلقبونه بالحكيم ، عندما عرض بضاعته بواسطة الشعر الجيد ، وانطلت حيلته، وظفر ببغيته، والدليل كثرة ما أعطي من الفراء الموشاة، والجباب المحشاة.

ويشير الراوي إلى أن ذلك كان بسبب (أطايب قوله)، فقد قدمه أدبه إلى الناس في صورة الحكيم العالم البارع في الطب ، ونال ما نال من استحسان لجودة أدبه، وربما يؤمئ المؤلف إلى نفسه بذلك ،أي كونه صاحب أدب بارع، وربما يشير إلى فعل الأدب الجيد في النفوس ، ورفعه لمكانة صاحبه بين الناس.

- الكشف والتعرف :

ويمثل هذا المقوم علامة انتهاء المقامة، فعندما يتعرف الراوي على البطل ، لابد أن يختفي البطل من ذلك المكان ، ليظهر في مكان آخر بحيلة طبية أخرى، وتقديم فني آخر، يقول الراوي : " فلما ملأ جرابه لجينا، وافعوعم جيبه عينا، وتحفز بينا، فافتكرت فيه فكر الأديب ، ونظرت نظر المريب ، فأومأ إلي بعينه، خوفا أن أنبه على مينه، وقال : لن يهتك الأسرار إلا وجوه الأشرار، ولن يصون قبيح الأخبار إلا أعيان الأخيار وأنشد:

لولا زمان كدني صرفه لم ترني في كل أفق أصول

ولا لساني صاغ من مينه وختله في الأرض هذي الفصول" ص ٧٥

فيكشف الراوي عن صفة من صفات الأديب ، وهي الفطنة ، بقوله:"فأفكرت فيه فكر الأريب". وتشتمل بنية المقامات على عقد ضمني يتكرر من مقامة إلى أخرى ، بين الراوي والبطل، فعلى الراوي أن يكشفه، وعلى البطل أن يرجوستره، يقول الراوي : " ونظرت نظر المريب، فأومأ إلي بعينه خوفا أن أنبه على مينه" أي كذبه.

وكذلك يتضمن هذا العقد أن يمدح البطل الراوي ، فيجعله في هذه المقامة من "أعيان الأخيار "، ويعتذر إلى الراوي بأن وجوده في هذه الحالة بسبب صروف الزمان، وكأنه يعده باللقاء في أماكن أخرى عندما يقول :"لم ترني في كل أفق أصول".

وكذلك يكشف البيت الثاني على إصرار البطل أن يصوغ المين والكذب، وأن يستمر في (ختله في الأرض هذي الفصول) .

ثم يبئر الراوي جدة هذه الحيلة ، وأن الأصل في بطل المقامات أن يكون أديبا لا طبيبا، فيذكر الراوي الحوار الآتي بينه وبين البطل " قلت لطالما عهدتك

أديبا ، وما ألفتك طبيبا، فما الذي دعاك إلى هذا الذي تعقم فيه نتائج الأفهام؟ قال لا ملام مع الإعدام، وخون الأيام ، وأنشد :

كن في الزمان وأهله متلونا كأبي براقش

وتعـــاط كل صناعة واسبر خفيات المعايش"

ونستنتج من النص السابق ما يأتي:

_ يكشف قوله (لطالما عهدتك أديبا وما عهدتك طبيبا) على أن الأصل في بطل المقامات أن يكون أديبا، ولكن الجديد الذي أضافه المؤلف ابن ماري لهذا البطل هوأن يظهره طبيبا ؛ ولعل هذا أثر من آثار اشتغاله بحرفة الطب.

_ يكشف قوله(لا ملام مع الإعدام وخون الأيام) إلى ما تواتر وجوده في أدب المقامات من اضطرار البطل إلى الكدية بسبب الفقر وتغير الحال.

_ ويظهر معلم مهم متكرر في أدب المقامات ، وهو تلون البطل من أجل خداع الناس، وهذا ما نجده لدى رائد المقامات السردية بديع الزمان الهمذاني ، فإن بطل ابن ماري يتناص بشعره مع قول أبي الفتح الاسكندري في المقامة المكفوفية لبديع الزمان الهمذاني، حيث يختتمها بقوله :"

أنا أبـــوقلـــمون في كل لون أكون

اختر من الكسب دونا فإن دهرك دون" (١)

ويشرح المحقق قول أبي الفتح الاسكندري أنا أبوقلمون بقوله: "القلمون ثوب يراعى عند نسجه أن يظهر فيه عدة ألوان، والمعنى أنه لا يستقر على حال"(٢)

وأما قوله : وتعاط كل صناعة واسبر خفيات المعايش، ربما يتناص مع قول المكدي في المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمذاني "

اعمل لرزقك كل آلة لا تقعدن بكل حالة"(٣)

(١) بديع الزمان الهمذاني، مقامات أبي الفضل الزمان الهمذاني، شرح محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة، دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٦٥

(٢) بديع الزمان الهمذاني ، المصدر السابق ، ص ٦٥

(٣) المصدر السابق ص ٥١

ويؤكد البطل تلونه من أجل الاحتيال على الناس، بقوله : " ألم تعلم أني أخلب كل إنسان بفنه ، وأسكره بمدامة دنه" ص ٧٦

وبعد أن ينكشف أمره ،ويكشف عن سر حيلته الدنيئة للراوي ، يذكر الراوي: " فمر يتضاحك بي هازئا، وتركني خاسئا، ففارقته راجعا إلى القوم في بقية اليوم، وفضضت عليهم ختام قصصه، وأعاجيبه، فما منهم إلا من فتن بحيله وأكاذيبه"ص٧٧

ويؤكد هذا الختام العلاقة الودية التي تربط بين الراوي والبطل من ناحية ، وكذلك تربط بين البطل وجمهوره من ناحية أخرى ، فلعلهم اعتادوا على حيله، وأكاذيبه، وصاروا ينتظرون الجديد منها بولع وشغف .

ولعلهم يهمهم من السرد اشتماله على الأعاجيب، وربما فتنوا بخطابه، لأن " أعذب القول أكذبه"(١) وإن اعتاد العرب على قبول الكذب في الشعر؛ فإن طبيعة الشعر تماثل طبيعة الحكي والسرد من اعتماد كل منهما على التخييل ، وصناعة عالم جديد.

وتستمر هذه العلاقة الودية بين البطل وجمهوره، ربما لكي تستمر المقامات، ويكتمل سردها بظهور البطل في مكان آخر ، وبحيلة أخرى.

ونتوقف أيضا عن المقامة الإثمدية (المقامة السادسة والثلاثون): ص٢٤١_٢٤٤

ونلاحظ أن العتبة النصية الرئيسة لها، وهي العنوان، لا تشير إلى مكان، وإنما يطلق عليها ابن ماري اسما(الإثمدية)؛ والإثمد ضرب من الكحل يستخدم في التداوي (٢)، ويشير هذا العنوان إلى أن الموضوع الرئيس لهذه المقامة هي الطب، أو بعبارة أدق طب العيون على وجه التحديد ، والطبيب الذي يقوم به يسمى الكحال (٣).

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان ، القاهرة ، مكتلة الخانجي، ط١ ، ٢٠٠٠ ص ٥

(٢) ابن منظورلسان العرب مادة ثمد

(٣) ابن منظور مادة كحل

ويتشكل بناء المقامة على النحوالآتي:

الراوي والفضاء : ويبتدئ الراوي المقامة بقوله : "حدث يحيي بن سلام قال: خرجت يوما حمى وطيسه، وتظاهر بوسه، فلمحت شخصا أمامي، يخبط في المعتاص، حتى وقع على جمع يسترهن العين ، ويستأمرهن البين"ص ٢٤١.

ويلاحظ أن المكان يغيب عن عنوان المقامة، ويغيب أيضا عن فاتحتها النصية، ويركز الراوي – من عناصر الفضاء –على عنصر الزمان؛ فهويوم حار (حمي وطيسه) ، يشير إلى شدة حره، وظهور بؤسه وشدته.

ويكشف قوله : (يخبط...) ،على أن الهدف من وجود الراوي هوتعقب البطل الذي يسير على غير هدى، من أجل أن يروي حكايته ، ويقدمها من خلال وجهة نظره .

وتظهر كلمة (العين) في هذه الفاتحة النصية، وتتعاضد مع العنوان ؛ لتشير إلى موضوع المقامة ، أما من قصدهم البطل ، فهم"جمع يسترهن العين، ويستأمرهن البين"، فهم جماعة من الرفاق في مجلس خاص ، تجمعهم الصداقة، ولا يتجرأ عليهم أحد، فهم أحرص على القرب والود، فلا يصل إليهم– من وجهة نظر الراوي– البين أوالفراق، ومن خلال هذا التقديم يظهر المكان الفرعي ناحية بعيدة تحافظ على خصوصية أصحاب المجلس.

البطل وأحداث المقامة:

ويبدأ الراوي في الكشف عن شخصية البطل ، ورواية أحداث المقامة بقوله: " فحين شرع عليهم ، ولمح ما لديهم ، نشر بساطه وأبرز أخلاطه، وقال إن في الإثمد لنفعا ، يقوي الأجفان، وينشف مجارى الإنسان، ويشد الأعصاب، وفيه من الفوائد أبواب . وقد صحن كحل عتيق، فيه معنى دقيق ، له خمسون عاما، يفوق سواده حاما، ولست أحجبه عنكم، ...فمن أراد أن يجلوعينه، فليقدم عينه، أوينبت أجفانه ، فليدعدع جفانه" ص ٢٤١

فيظهر البطل في صورة الطبيب الكحال ، ويذكر فوائد الإثمد ، ويظهر سعة علمه به عندما يقول: "وفيه من الفوائد أبواب"، ويذكر جودة ما لديه منه ، من العتق(القدم) ، والسواد، والصحن .

ثم يعرض عليهم أن ينفعهم بطبه ، وأن يقدم لهم الإثمد ، في مقابل ما يقدمونه إليه شأن المكدين، لا شأن الأطباء ، فإنه يقبل من الناس كل ما يدفعون به إليه من الأجر سواء أكان عينا (الذهب والنقود)، أوطعاما (في الجفان).

ثم يقول الراوي ، الذي ينتمي إلى نوع الراوي العليم" فلم يدر الجمع أنه صاحب الخدع، فما فيهم إلا من قدم له ما قال؛ فحين نديت كفه بنداهم، ونشق نسيم جدواهم، كحلهم واحدا واحدا، ووصل إلي متعاهدا، فقلت اغرب عني ، فما أحب أن أغنى، ففي الحكاية كفاية، لمن فيه أيسر دراية"[ص٢٤١]

ويذكر الراوي أنهم انقادوا إلى البطل ، مخدوعين طائعين، وبعد أن تلقى منهم العطاء، أخذ يكحلهم واحدا واحدا.

ويلاحظ أن الراوي يكتشفه، ويعرف أنه بطل المقامات؛ المكدي المحتال، فيأبى حيلته، ويرفض أن يكتحل مع القوم ، ثم يوحي إليه أنه قد اكتشف أمره، ونهره، لكنه لم يكشف عن حقيقة شخصيته، لأنه لو فعل ذلك ما أتمت المقامة أفعالها؛ ولانتهت سريعا.

ثم سرد الراوي ما فعل المكدي المحتال بالقوم بقوله:" ثم أخذ ينتخب ذخائر القوم، وقد أسروا بأشطان النوم ، فقلت أقسم عليك بمبدع الورى، أبجلاء كحلتهم أم بكرى... ثم سار وأنا أعتقبه، وانتظر الفجر وأرتقبه ، لأحقق كنهه واسمه، فحين رفع الظلام لثامه، ولألأ الصبح أعلامه، عاينت أبا عمرو، عقلة المسافر، وقد قابلني بوجه سافر، فقلت ما جلاؤك ؟" [ص ٢٤١_ ٢٤٢].

فقد تنبه الراوي إلى أن في الأمر خدعة، فرفض أن يكتحل مع القوم ، وكاشفه بحيلته، وأعرب عن تعجبه من خدعه، ثم راقبه وهو يمارس سلب من كحلهم .

ويلاحظ أن الراوي يعبر عن كثرة ما استلبه البطل ، عندما جعله يختار مما ذخره القوم، وعبر أيضا عن شدة مفعول دوائه، فقد ربطهم النوم بحباله، واستأثر بهم.

ولا يتحقق (التعرف) إلا عند ظهور الفجر، وكأن هذه القصة أو الحكاية قد استمرت ليلة كاملة؛ فالبطل يظهر في الظلام ، ليستره الليل ، ويفر مع طلوع الفجر، ولألأة الصبح .

ولعل سبب ظهور البطل بالليل ، لأن السمر عند العرب عرف بالليل، بالإضافة إلى أن الليل ستر وتمويه يناسب شخصية البطل ، والنهار فضح وتبيين.

وعندما يتعرف عليه الراوي بعد الفجر ، يقول :" عاينت أبا عمرو عقلة المسافر"، مستخدما حاسة العين التي هي محور المقامة، ربما يقصد الأديب الذي يعقل بحلو حديثه ومسامرته، وربما يفعل ذلك بحيلته.

ويلاحظ أن الحوار بين الراوي والبطل يطول في هذه المقامة، وإن كان بناؤها بسيطا ، لا يعدو أن يشتمل على الوظائف الآتية

_ رحلة الراوي إلى مكان جديد ، يتتبع فيه البطل.

_ يظفر البطل بجمع مؤتلف من الأصدقاء في ناحية بعيدة ، منعزلة عن الناس.

_ يقدم البطل حيلته من خلال خطابه الأدبي.

_ ينخدع الناس بحيلته.

_ يكتشف الراوي حيلته، ويفضح أمره.

ولكن الوظيفة الأخيرة وهي التعرف، تطول في هذه المقامة ، ربما ليكمل المؤلف بأحداثها هذه المقامة ذات البنية البسيطة غير المركبة، حيث إنها تحتوي على حبكة واحدة، وربما ليظهر المؤلف أيضا بطله في صورة الأديب الموسوعي ، الذي يجمع بين الإجادة في فني اللغة العربية (الشعر والنثر) ، وهوبهذه الطريقة يظهر نفسه كذلك.

ثم يدع البطل ينشد شعرا يكشف عن فلسفة الكدية ، يذكره الراوي على النحوالآتي:

أصبحت لا أحوى فتيلة	بأسنة البلوى قتيلا
ولقد برزت بثينة	حينا وأحيانا جميلا
لما تعداني الغنى	وفقدت مالا لي جزيلا
أبغي سبيلا للندى	يغنى فلا أجد السبيلا
وأحوم لا أرد الأجا	ج ولا الزلال السلسبيلا
تالله لولا ما ذكرت	لعفت مكحلة وميلا

فاكفف عتابك لا تكن عن منهج الحسنى عدولا
ما يقتضي حالي الملام فلا تكن خلا عذولا

فيكرر ما ألفناه من بطل المقامات من شكوى الفقر ،وتغير الزمن الذي يقلب حاله دائما ، ويجعله يتلون ، فيكون مرة بثينة ، وأحيانا جميلا، ويعيدنا ذكر بثينة وجميل إلى البادية ، وإلى الأخلاق العربية ، التي افتقدت في ذلك العصر ، وفي الأبيات ما يشير إلى ذلك ؛ فالبطل لا يستنكف أن يظهر مرة في صورة بثينة ، ويظهر أخرى في صورة جميل.

ثم يطلب من الراوي أن يكف عن عتابه، فلولا ما ذكر من حاله وحال عصره ما اصطنع حيلة الطبيب ليستلب القوم ، ويحتال عليهم.

ثم يطول الحوار بين الراوي والبطل، لشئ يقصده المؤلف ، وهوأن يذكر بأنه أديب طبيب. ويدور الحوار الآتي خلال هذا العنصر البنائي الأخير(التعرف)، الذي أطال المؤلف به المقامة، بما يكشف عن صداقة الراوي والبطل، وعلى التعاقد الضمني بينهما، فيذكر الراوي : " ثم قال (أي البطل) إن شئت أن تصحبني إلى تنيس ، وتنفق من كيس التلبيس، فصل جناحي واصطحب، وإن شئت أن تذهب فاذهب، قال يحيي بن سلام فقلت له قد حرت في الخطاب لادراعك بما خبث وطاب ، تبرز تارة خطيبا ، وتسفر أحيانا طبيبا ، وتنجلي في الحكم حينا، وتتحلى بالمنادمة حينا، فضحك ضحكة متعجب ، وانزوى انزواء متغضب، وأنشد:

برزت في كل دهر بمشبهات أناسه
فكل شخص أسا قيه من فضالة كاسه"ص ٢٤٣

وربما تشير كلمة تنيس ، وهي مدينة مصرية كانت بجوار دمياط، وجار عليها البحر [١] إلى أن المكدي كان _في الأغلب_ خلال هذه المقامة يجول في فضاء البلاد الإسلامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

(١) كانت جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، تعمل بها الثياب الملونة والفرش البوقلمون ياقوت الحموي ، معجم البلدن ،بيروت ، دار صادر، ١٩٩٣ ج٢ مادة تنيس ص ٥١

فيعرض عليه الصحبة، كما يعرض عليه أيضا المشاركة في الكدية ، بقوله:" وتنفق من كيس التلبيس"، فيتأكد لدينا ما بين الراوي والبطل من قواسم مشتركة؛ فقد احتال الراوي ، وقام بدور البطل في المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمذاني(١).

ويبين البطل أيضا أن الحيلة الطبية هي من ضمن حيله المتعددة، لكنه يقدم على كل خصائصه كونه أديبا ناثرا وشاعرا، ربما لأنه في هذا المقام ينافس على البلاغة والصنعة الفنية .

ثم أنشد الشعر ، يعلل البطل به كديته بأنه يساقي كل أناس مما يشربون، فهو يتلون مواءمة لتلون الدهر، وتلون الناس ، وربما كان صنيعه رد فعل ثقافي على النفاق الذي صار سمة العصر الذي عاش فيه.

ويطول عنصر التعرف ، ليكشف عن مدى الصداقة بين الراوي والمكدي، فلولا وجود قواسم مشتركة بينهما ، وقرب بين الشخصيتين، ما تلازما طوال المقامات. إذ تتغير الحوادث، ويبقى الراوي والبطل يمثلان السلك الناظم لتلك الحلقات السردية المتنوعة.

ويدور بينهما الحوار الآتي ، الذي يرويه الراوي في ختام المقامة، بعد أن رفض الراوي مصاحبة البطل، والاحتيال مثله، ويرجع ذلك في الأغلب إلى الرغبة في المحافظة على تمايز كل منهما، يقول الراوي :"ثم ازدلف ازدلاف معانق، وضمني ضمة مفارق، وأنشد :

لا تركنن إلى سلم الزمان فما يجري على نهج قانون وترتيب
تبدي مقادره أنى صرت عبرا منوطة بالبلايا والأعاجيب
قد حيرتني فما أنفك ذا وله فقد سبرت دهاها بالتجاريب

فحين فرغ من الوصاة، اختطفته الفلاة" ص ٢٣٤_٢٤٤

فتؤكد المقامة على العلاقة الودية بين الراوي والبطل ، التي عبر عنها بالمعانقة عند الوداع ، والوصية له بالحذر من الزمان المليء بالبلايا والأعاجيب.

(١) بديع الزمان الهمذاني ، المصدر السابق، ص ٤٩

وبدا البطل مشفقا على صديقه الراوي أن يصيبه ما أصابه من ولـه ، أو تحير إزاء دهاء الزمان، وهولا يمتلك حكمته. ويكتمل هذا الود حين يظهر طرفا من المشابهة ، فقد ابتدأ البطل يعد انتهاء المقامة في رحلة تشبه رحلة الراوي ، وتمر خلال الصحراء، وفي ذلك محاكاة للرحلة العربية القديمة ، قال الراوي: "فحين فرغ من الوصاة ، اختطفته الفلاة" ص ٢٤٤

المقامة المشانية [١] (المقامة الخامسة والثلاثون) ص ٢٣٧_ ٢٤٠

وتندرج هذه المقامة في إطار المقامات التي استخدم فيها الطب للكدية، ويتشكل بناؤها على النحو الآتي :

الراوي والفضاء :

روى يحيي بن سلام قال :" قصدت المشان لمحضر شان ، لأخبر مازان وشان، فحين اخترقت[المدينة، وجدتها] ضيقة أنهارها، ونشقت ريح عرارها، وعرفت سماجة ليلها ونهارها، وشأوت جزلها وسهلها، وشاهدت أهلها، فشممت أرائج معتلة ، ورأيت طبائع مختلة، بوجوه فاقعة الألوان، منتفخة الأجفان، وسيقان دقيقة الظنابيب، و أذرعة كأندعة الذباب ، وأصوات منقطعة، وبطونهم مرتفعة، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون، بدلت من أبكار المدن بالعون، فخامرني استشعار، ولاح للهم علي شعار، فأفكرت فيما يهذب المزاج تهذيبا جامعا، فرأيت الفصد علاجا لأكثر الأمراض قامعا ، وكان أوان اكتساء الأغصان، وتحريك الأبدان" ص ٢٣٧

وتأخذ المقامة عنوانا يرتبط بالمكان، فيكشف عن المكان الرئيس الذي تقع فيه أحداثها، ويلاحظ أن هذه المدينة_التي ذكرها_ هي من أعمال البصرة [٢] وهي في الوقت نفسه موطن الحريري، صاحب المقامات الشهير؛ كانت تذكر به، وتمدح بسببه .

(١) المشان هي قرية الحريري التي ولد بها ، ياقوت الحموي، معجم البلدان ، المصدر السابق، مادة المشان

(٢) وهي بليدة قريبة من البصرة كثيرة التمر والرتب والفواكه ومنها كان أبومحمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات ، وإلى الآن إذا سخط ببغداد على أحد ينفى إليها ياقوت الحموي،معجم البلدان المصدر السابق ، ص ١٣١ ج ٥

ويبدو موقفه منها موقفا متميزا، له دلالات عديدة، فهو يذمها، فيذكر قبح منظرها، ويظهر تحامله - في لغته المنحازة -عليها، حين يذكر ضيق أنهارها، ويصرح بالقول " بدلت من أبكار المدن بالعون" ، ناعيا سوء حظه الذي أوصله إليها.

وبعد أن عاب المدينة، أخذ يعيب سكانها، فقدمهم في صور مشوهة الأجساد، مختلة الطبائع ، وجمع لهم عددا من العيوب الخلقية.

فلم يدع عيبا إلا وصف بها المدينة وأهلها، مما يشير إلى عدم تعاطفه معها؛ فهل كان يعيبها ليعجب كيف نشأ الحريري منها؟ أم أنه يعيبها لكي يعيب الحريري، ويجعله نتاجا طبيعيا معتلا لاعتلال هذه البيئة، أو أن تلك حيلة فنية تمهد لأحداث المقامة ، وتخدم السرد فيها.

ثم يظهر معرفته بالطب، فيريد أن يحترز لنفسه من الإصابة بأمراضها فهي مكان مليء بالوباء، ينشئ بشرا معتلين، فيلجأ إلى الفصد، من أجل الحمية أو الوقاية من الأمراض .

ويشتمل هذا التقديم على عنصر الزمن أيضا ، فربما كان أوان الانتقال من فصل الشتاء إلى فصل الربيع لقوله:" وكان أوان اكتساء الأغصان، وتحريك الأبدان".

<u>البطل وأحداث القصة:</u>

يقول الراوي : " فاستدعيت غلاما نحريرا، تخاله طبيبا غريرا، يقرأ النجاح من صفحاته، والفلاح من لمحاته، فقلت استدع لي فاصدا، رقيق البشرة، أخباره منتشرة، مشحوذ الآلات، بارع الفهم، صحيح الوهم، يشق العروق، له فيها تقاسيم وفروق، لا يلحقه نصب ، في جس الشريان والعصب، ثم تأمل لطافة أنامله ، وجوده عامله وصحة ناظره، ويكون قليل الفضول ، قصير الفصول، يجرح العرق لمحا، فمر أسرع من قول لا" ص ٢٣٨

ويبدو أن المؤلف قد غلب على الطبيعة السردية للراوي، فصار الراوي ناطقا بتفاصيل طبية، تظهر مهارته في علم الطب، في ذلك العصر، عن طريق الفصد؛ فقد ذكر الراوي الصفات المثالية لمن يمارس هذه المهنة من الأطباء.

ويلاحظ أيضا أن صنعة الطب تطغى على النص، فنجده يصف الغلام بقوله (غلاما نحريرا، تخاله طبيبا غريرا)، فقد ظهر الغلام _ من وجهة نظر الراوي_ يشبه الطبيب النحرير.

ثم يذهب الغلام ليحضر الطبيب الفاصد ، فيظهر البطل على النحوالذي يذكره الراوي :" فمر أسرع من قول لا، ثم عاد مهرولا، وراءه ذوأطمار، ومن له من كل مكيدة انطمار، فحين رأيت محاسن الوارد ، بقيت بلب شارد، فقلت لعل وراء غمامة رشحا، أوخلف ظلامه صبحا، فما كذب إذ جلس، وحرك زناده واقتبس، وأبرز دستا بهندام ظاهر التشويش، أكثره غير قريش، فأخذ يصف صناعته ومعرفته وبراعته ، والتفت إلي التفات العارف، بتالد الأمر والطارف ، وقال يوشك أن تكون حبر هذه الصنعة ، ومن له في فنونها فرط الرفعة والمنعة، فما الذي أحلك بقعة فاسدة الأسطقس؟ ...لكن الطبيب الفاضل ، ومن في كل عنصر يناضل، يقوم الميل، وينفي العلل، وإلا فما الفرق بينه وبين الهمج الجاهلين بما انفرد من الأدوية"ص٢٣٨ .

ويلاحظ أن الراوي يكاد يتطابق مع البطل، ويأخذ كل صفاته، وذلك يمهد داخل السرد للعلاقة الطيبة بينهما، والعقد الضمني الذي يتكرر في كل مقامة، على المعرفة وكتمان السر أمام الجمهور، الذي يحتال عليه المكدي، وعدم فضحه أمامهم، وملامته إياه فيما بينهما.

وكذلك لا يتفاوت المستوى اللغوي الذي ينطق به الراوي، عن المستوى الذي ينطق به البطل، ويرجع ذلك إلى سيطرة المؤلف على شخصياته، التي يخلقها ، فتظهر شخصيته اللغوية الأدبية طاغية على حقيقة كل شخصية، وفي هذه المقامة – على وجه الخصوص– تطغى أيضا حرفته الطبية .

ونجد ابن ماري هذه المقامة يجعل معرفة الراوي بعلم الطب، والقصد منه خاصة في هذه المقامة لا تقل عن معرفة البطل.

أما عن الكدية في هذه المقامة، فقد ظهرت في احتياله على فصد الراوي ومن كان معه، ثم يوظف علمه من أجل الكدية ، فقد تعمق فصد القوم، ليفقدهم الوعي، فيتسنى له بالتالي سرقتهم .

ويلاحظ أن وجود الراوي ذو أهمية ، لبناء المقامة، فالفصد يغشى القوم، لكن الراوي كان واعيا بحكم معرفته الطبية بممارسة الفصد، فنجا من الحيلة، التي اتخذها البطل في هذه المقامة وسيلة للكدية، وكانت نجاته من أجل أن يروي لنا أيضا حيلة البطل ومقامته.

ولكي تستمر المقامة وتكتمل أركانها، بركن التعرف يقول الراوي : "ومر(البطل) وترك القوم بدماء سافحة، ولوعة على العمائم لافحة"، ويبدوأن عمائم القوم كانت مما سلبه منهم ، ولكن الراوي أورد في كلامه –من قبل – ما يدل على معرفته بالبطل، عندما قال : " ثم عاد مهرولا ووراءه ذوأطمار ، ومن له من كل مكيدة انطمار"ص ٢٣٨ ، فقد عرف الراوي بطله عندما لمحه لأول وهلة وحدس مخبره من منظره .

<u>التعرف :</u>

ولا يكتمل التعرف إلا بتجربة يمر بها الراوي، لأن البطل بعد أن تنجلي حيلته على القوم، يسارع بالهرب قبل أن ينكشف أمره للعامة، لكن الراوي يجهد في تتبعه، لكي يتحقق من شخصيته، ويفضح أمره، لكي تنتهي المقامة باختفائه ، ويظهر في مقامة غيرها، يقول الراوي :" ومر وترك القوم بدماء سافحة، فقمت محثا خلقه، لأحقق منافقته وخلفه. .. فحين رآني ، وقد أطلقت للسرعة عناني، وقف وما عناني، وإذا هو أبوعمرو، ذوالمكر الغمر، فنهرته لإبداعه في خداعه، وقلت أتلعب بأرواح الأنام، ولا تفكر في منشئ العظام وهي رمام،"ص٢٣٩ فأنشأ يقول :

ولكم فتكت وكم هتكت وكم سفكت دم قيول
ولكم جررت إلى المخازي والبلايا من ذيول
وكم اندفعت إلى مخاتلة الورى دفع السيول...

ثم اعتذر بفقرة وعدمه ... وقال : دونك الأقوام، فكم تلسعني بحمة الملام، واشدد زنودهم قبل أن يصلد الحين زنودهم، فقلت: قضى الأمر الذي فيه تستفتيان"ص٢٤٠، فقد أراد البطل أن يمكر بالراوي ، ويجعله يعود، بدافع الشفقة لينقذ القوم ، فيتحمل الراوي دياتهم ودماءهم ،ففطن الراوي لخدعته وأبى أن يفارقه، وأصر على السير في طريقه مخاطبا إياه بقوله : "لا شك في هلك

المشايخ والشبان، ولست إليهم راجعا، ولا لأمر مراجعا، وكيف أخلفك الطريق، وأنت لكل مكيدة بطريق، وليس من الحزم أن تفوز أنت بالعمائم، وأكابد آفات العقول والجرائم" ص ٢٤٠

فبعد أن تتبعه الراوي ليكشف عن شخصيته، أراد البطل أن يحتال عليه، وهذه الرغبة تشتمل ضمنيا على القرب بين شخصية البطل والراوي، ولذلك في ختام المقامة يحزن الراوي لفراق البطل، ويلجأ إلى الاستعارة من أجل تصوير ألم الفراق، لكن دون أن يشاركه في جريمته، ربما ليبقى التمايز الفني بين شخصية البطل والراوي، فيقول أخيرا :" رجعت عنه رجوع من عثر بحجر مرتين، على وله من ارتشاف كأس البين، ولم أعد إلى القوم فيلحقني ذم ولوم"ص٢٤٠.

المقامة الأفريقية(الثانية والثلاثون) ص ٢١٥

وتندرج هذه المقامة ضمن المقامات التي اتخذ فيها البطل الطب وسيلة للكدية، ويلاحظ خلالها أن هناك ارتباطا وثيقا لدى المسلمين في صناعة الطب، بين تشخيص الداء وصنع الدواء [١]، ويمكن تحليلها سرديا على النحو الآتي :

الراوي والفضاء:

يشير العنون ذوالمرجعية المكانية(الأفريقية)، إلى أن أحداث هذه المقامة تقع في أفريقيا، ويقصد بإفريقية في الثقافة الإسلامية – عصر المؤلف – تونس[٢] وربما تضاف إليها بلاد المغرب أحيانا.

وتبدأ المقامة على النحو الآتي:

" روى يحي بن سلام قال خرجت من اللاذقية قاصدا ريف أفريقية، وأنا ذو عدة وعتاد، ونار وزناد، أسحب أبراد اليسار، وأزهو بالقدح المعلي على الأيسار، مطروق الشرائع ، ملوح الوشائع، لا يصرد لي في غرض سهم، ولم ينتقص لفراستي وهم ، فلم أزل بين ناي وعود، وتصيد فرح شرود، حتى صرت على القاع، وحللت ذروة الأرقاع، ولم ببق هارب ولا قارب ولا طائر ولا سارب، فلما

(١) انظر ابن أبي أصيبعة ، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط٢ ، تحقيق ودراسة د عامر ،القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ٢ ، ٢٠١٠ ،ص ١٩٥ .

(٢) انظر جستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ،القاهرة ، طبعة الحلبي، ١٩٤٥ ، ص ٢٦٢

لم أر إناء ينضح، ولا جوادا يمنح، اشتملت ابن سمير ، لأقف على سمير، فأداني التجواب إلى غمامة زحام لا تنجاب" ص٢١٥

وتتشكل شخصية الراوي من الملامح الآتية :

_ إنه رحالة صاحب أسفار، أو خدن أسفار، شأنه في ذلك شأن البطل في الارتحال من مكان إلى مكان، وفي هذه المقامة خرج من اللاذقية في بلاد الشام قاصدا ريف أفريقية، فوصل إليها ، وهو ذو يسار.

_ يلاحظ تغير حاله من الغنى إلى الفقر ، وتغير الناس عليه – شأن البطل تماما– فقد ذكر أنه كان ذا عدة وعتاد، ونار وزناد، فكان يجمع بين الغنى المادي والحظ السعيد، والقبول بين الناس. ولعل ذكر العدة والعتاد يرجع إلى كونه متهيأ لذلك السفر البعيد، لكنه أضاع ما يملك من المال ، ليلتحق بالبطل في الفقر والإملاق.

_ لكن الراوي يبدو أخلاقيا يؤنب نفسه على إسرافها، عندما يقول :" فلم أزل بين ناي وعود ، وتصيد فرح شرود، حتى صرت على القاع ، وحللت ذروة الأرقاع"ص٢١٥. وربما يتناص مع المقامة الصيمرية، لبديع الزمان الهمذاني (١)

فيذكر الراوي أنه ظل بين لهو وقصف ، حتى حل مكانا رفيعا ، بين الأدنياء والسفلة، وعندئذ انفض عنه الناس ، " فلم أر إناء ينضح، ولا جوادا يمنح" ، فيصرح بأنه لم يساعده أحد على اجتياز محنته.

ثم يظهر عنصر مهم من عناصر الفضاء ، يتعلق بالزمن ، الذي وقعت فيه أحداث المقامة، وتقع أحداث المقامات غالبا في الليل ، لأن الليل يستر حيلة المكدي، والفجر يعين بضوئه الراوي على التعرف يقول الراوي :" اشتملت ابن سمير ، لأقف على سمير" ، أي أنه ادرع الليل ليبحث عن سمير، وهذا يعني اتصافه بوصف الأديب ، الذي يحب السمر، والأخذ من كل فن بطرف، وتمهد هذه الصفة، للبحث عن حكي، فالسمر هو حديث الليل (٢)

---

(١) انظر بديع الزمان الهمذاني المصدر السابق ص ٢٢٧ ، و الرقيع من الرقاعة وهي الحماقة وضعف العقل، والسماجة، وتستعمل فيما ينشأ عنها من قلة الحياء والصفاقة، والرقيع هوالأحمق السمج ، ابن منظور لسان العرب مادة رقع

(٢) ابن منظور لسان العرب مادة سمر

البطل والكدية والعرض الأدبي:

ويبدو البطل في هذه المقامة ممخرقا، مدعيا لفعل الخوارق، يمزج بين الحيلة والأدب ، ولا يصل إليه الراوي شأن كل مقامة، إلا وهو في زحام ، قد اجتمع حوله، يستثير فضول الراوي، وتشوقه إلى معرفة لم ازدحم عليه الناس .

ويوجد في الوقت نفسه الجمهور الذي يحتال عليه المكدي يقول الراوي ساردا الأحداث ومبئرا البطل : " فأداني التجواب إلى غمامة زحام لا تنجاب، فخرقت ذلك الزحام، وإذا بشخص قد غطى وجهه بلثام ، وبين لديه الآلات ، وهو يتحدث في الإحالات ، ثم أبرز طيرا ميتا لقنا، وأخذ في نمط الرقى، فإذا به حي يسعى ويرعى، وهو يشفع كل نادرة ، بمقالات منمقة، ويشيعها بروايات ملفقة، حتى بهت الحاضرون ، بأبكار أعاجيبه والعون، ثم قال إن عندي ما يعيد الثيب بكرا، ويبدل النسيان ذكرا، ويسود الطرر، ويبيض الغرر...ويطول الشعور، ويطيب الثغور، ويحمر الخدود ، ويقوم القدود، وينشر السمن، ويطوي العكن، ويكثر اللبن في الرضاع ، ثم أنشد:

عندي فنون من نهى مرصوعة بالحكم

تمنع من عقم النسا ومن حلول الهرم..." ص ٢١٥_ ٢١٦

ويلاحظ أن الراوي يقدم البطل طبيبا، قادرا على فعل المعجزات، لدرجة أنه يستطيع أن يحيي الموتى، يذكر بشخصية المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، الذي وصفه القرآن الكريم بقوله: "ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله..." (١)

ولم ينس الراوي أن يظهر الجانب الأدبي من شخصية البطل، عندما يصفه بجودة الأسلوب وبراعة الحكي، واختلاق القصص، بقوله :" وهويشفع كل نادرة بمقالات منمقة ، ويشيعها بروايات ملفقة، حتى بهت الحاضرون" .

ويتضح من خلال حيلته أنه يركز في خدعته على جمهوره من النساء، فالفوائد التي يستطيع أن يحققها تخص كلها النساء؛ عندما يذكر أنه يستطيع

(١) آل عمران ٤٩

بمعاجينه " أن يبيض الغرر، ويولد للحواجب زججا، وللعيون دعجا، وللشفاه لمى، ويطول الشعور، وينعم الجلود، ويقوم القدود" ص ٢١٦ ، ويؤكد ذلك مما ذكره في شعره من قدرته على علاج عقم النساء ، وقدرته على إرجاع الشباب، وتلقى كديته رواجا.

ثم يكشف شعره عن كونه مكديا لا عالما طبيبا، وإنما الطب حيلة من حيل الكدية عندما يقول :

عندي فنون من نهى مرصوعة بالحكم
تمنع عقم النسا ومن حلول الهرم
وليس يلتاط بها غير كريم الشيم
ومن هبات كفه جابرة من عدم
يا سادة قد شرفوا بالفهم والتقدم
ومن ندى أكفهم ينهل مثل الديم

فيمدح أهل الندى والكرم تمهيدا لاستماحتهم وطلب عطائهم، ولكي يستميل قلوبهم ، يفعل كما اعتاد المكدي ، فيذكر تقلب الزمان به ، وتغيير أحواله من الغنى إلى الفقر:

كم عرفوا من غامض بالحدس والتوهم
قد كنت مرموق الإخا أرفل في المسهم
يكشف نور فطنتي كل معمى مظلم
أيام ربعي عامر بالرفد والتكرم
بدلت بردا سملا بالعبقري المعلم
وعاد ربعي مقفرا من الندى والحشم
وفيكم كل فتى إلى العلاء ينتمي
مبرز في جوده وفي علوالهمم ص ٢١٦_ ٢١٧

فيذكر تغير حاله من الغنى، حيث كثرة الأصحاب ، وغزارة العطاء، إلى حال الفقر، الذي يرتبط به ابتعاد الناس عنه، والانزواء والوحدة.

ثم يذكر من حاله ومن مظهره الخارجي ما لم يذكره الراوي، فقد أخفى الراوي شخصيته ومظهره الخارجي، حيث ذكر أنه" قد غطى وجهه بلثام" .

لكن البطل يذكر عن نفسه:

بدلت بردا سملا بالعبقري المعلم

أي أنه يظهر وسط جمهوره مرتديا ملابس باليـــة، وبـــردا قـــديما ســـملا، وإن كان يريد أن يذكر أنه في الماضي كان يلبس الملابس العبقريـــة، المعلمـــة، أي عجيبة الصنع، التي كأنها_ لجودة نسجها وخطوطها الحريرية_ من نســـيج الجن العبقريين.

ويبدو أن كديته قد راجت ، ولقيت قبولا حسنا لدى جمهـــوره، يـــذكر ذلـــك الراوي بقوله :" فحين قطع الإنشاد، وقد مزج غيه بالرشاد، منح من النجاب، ما أذهب همه فانجاب، وما في القوم إلا من لطف له، وهو يقول لا علة، فأخذ يسرح هذا بوعد، وذا يمينه بدواء معد" ص ٢١٧

فيذكر الراوي أن البطل بعد أن أكمل إنشاده المزوق، الذي يختلط فيه الغـــي بالرشاد، أقبل عليه الناس بالعطاء الكثير ،الذي يتوقع الراوي أنه " أذهـــب همـــه فانجاب"، أي غير حال البطل ، واعتراه الفرح ، وأخذ يعد جمهوره بـــأن لا علـــة ستبقى عند أحد بعد مجيئه، وأخذ يعدهم ويمنيهم ، وربما يتناص في ذلك مع فعل الشيطان الذي ذكره القرآن الكريم بقوله :" يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا"(١).

وعلى هذا النحو تنتهي أحداث الكدية ، ليبدأ المقوم البنـــائي الأخيـــر وهـــو <u>التعرف :</u>

ويلاحظ أنه يتم في هذه المقامة بإيجاز، فيذكر من روى عن يحيي بن سلام : "قال الراوي فلمحته لأنظر مرعاه الخصيب ، وإذا هو أبـــوعمر ويخطـــئ تـــارة ويصيب، وقد فتن بمعاجينه، وروع بمقرفه وهجينه، فقلت له أعن ضلوع ترفق، أم تمين ولا تحقق، فقال لا تعلم العوان الخمرة، وهل بعد قضي المناسك عمرة؟ ثم أنشد:

خذ الناس بالهزل والمخرقة فبالجهل أنفسهم موبقة

فكم قد حرت بجـــد تلوت وألفـــاظ عذبة مونقة

(١) النساء ١٢٠

وجانس زمانك في فعله لتـــأمن أحداثه الموبقةص١١٨

فنجده في هذه المقامة يلمح البطل محاولا أن يعرف شخصيته، وما اكتســب من كديته، وتظهر دائما في التعــرف، إذا الفجائيــة ، وكأنمــا الــراوي_ وفــق مقتضيات السرد_ يفاجئ به(وإذا هو أبو عمرو)، ويصفه أنه يمزج حقا بباطــل، ويصف شغفه بمعاجينه بالفتنة، والفتنة مقترنة بالشر.

ومن خصائص التعرف أن يحدث بينهما عتاب، فيقرعه الــراوي بالســؤال الاستنكاري " أعن معرفة حقيقية ترفق"، أم أن ما تقدمه للناس مين وكذب؟

فيجيبه مفتخرا بنفسه ، مستشهدا مثلين من أمثال العرب، مؤداهما أن الخبير لا يحتاج إلى من يعلمه، وكأنه بذلك يرفض تدخل الراوي في عمله، وأنه لا يحتاج إلى نصحه ، ولكي يثبت هذه الدراية بأمره، وبموقعه بين زمنه وعصره، ينشــد شعرا على عادة المقاميين في اختتام جل مقاماتهم بالشعر .

ويكرر ما اعتاد المقاميون على ذكره ، من أنه يواجهون عصرهم وناسه بما يستحقه، فالهزل والمخرقة من جانب البطل ، تقابل الجهل الذي يقيد أهل زمانــه، وقد اختار البطل هذا النهج عن تجربة، فقد حار في الزمان ، عندما قابله بجــد وأدب رشيد.

فاضطر إلى أن يجاري زمانه في فعله، لكي يأمن أحداثه المهلكة، ويتنــاص في ذلك مع قول أبي الفتح الاسكندري في ختام مقامته المكفوفية للهمذاني :

زج الزمان بحمق إن الزمان زبون

لا تكذبن بعقل ما العقل إلا الجنون [١]

وقوله أيضا في ختام المقامة القردية:

الذنب للأيام لا لي فاعتب على صرف الليالي

بالحمق أدركت المنى ورفلت في حلل الجمال [٢]

(١) بديع الزمان الهمذاني المصدر السابق ص٦٥

(٢) بديع الزمان المصدر السابق ص٧٧

وتنتهي هذه المقامة على نحو غير معتاد ، يصوره الـراوي بقولـه :" ثـم رفض لحمة الإخاء ، وقصد قصد الرجاء" ص ٢١٨، فالبطل هذه المرة هومن يرفض صحبة الراوي له، ويمضي عنه لأهدافه .

المقامة الخمسون : دار السلام ص ٣٠١

ويمكن تصنيف هذه المقامة ضمن المقامات الطبية ، التي يسـتعرض فيهـا المؤلف معرفته الطبية المتنوعة ، على لسان الراوي ، أو على لسان البطل.

ويوظف الطب أيضا في الكدية، التي هي مقوم المقامة السردية ، التي أسس لها بديع الزمان الهمذاني، ويمكن تحليلها سرديا على النحو الآتي :

الراوي والفضاء :

تشتمل كل مقامة على ضربين من الفضاء ، الفضاء العام الواسـع ، الـذي يشير إليه العنوان أوالعتبة النصية الرئيسة، التي تعلو الـنص ، وتعـين علـى الكشف عن هويته الفنية.

ثم الفضاء الفرعي وهو المكان الخاص ، الذي يظهر فيه البطل ، ويمـارس كديته، ويقدمه الراوي بقوله:" رفضت المقام ، وقصدت دار السـلام ، وتوركـت بطن الجارية، وتعلقت بالطائرة السائرة ، المنسابة في العين انسياب الأين ، فلـم تزل في الحبب بين جري وخبب، حتى أحلتنا حمى الإمام، ونقطة الإسلام، وكنـت يومئذ أتعاطى الطب، وأواظب إلى نقلته أو أغب، وحين وطأت عثيرها، وطممـت عينها وأثرها، تقت إلى شاغورها لأفرق بين صحصاحها ووعورها ، فما اسـتنم ببالي خطر ، حتى رأيت شيخا محتفا بزمر..."ص٣٠١

فيصف الراوي رحلته على طريقة العرب، في الصحراء بواسطة الناقة، وإن كان يصفها مرة من أجل المجاز، بالجارية وبالطائرة المنسابة في العين، انسياب الأين أي الثعبان.

ولكنه يذكر من أنواع سيرها الجري والخبب، ليعيدنا إلى صورة الناقة، أمـا عن الصناعة التي يقدم بها نفسه إلينا فهي صناعة الطب، وقوله "وكنت يومئـذ أتعاطى الطب" يشير إلى تنقله بين الصناعات، وموارد الرزق.

ويذكر بغداد بواحد من أسمائها المتعددة ، وهو(دار السلام)، ويصفها بأنها حمى الإيمان ، ونقطة الإسلام ، فقد كانت هي عاصمة الخلافة في عصر المؤلف، وفيها يلتقي الراوي ببطل المقامة فجأة.

البطل والكدية والعرض الأدبي :

لا يظهر البطل أبدا إلا بين جمع غفير ، لأنه يحتاج إلى جمهور يحتال عليه، ويظهر أمامه أدبه (شعره ونثره)، وكذلك فنون كديته ، يقول الراوي :" رأيت شيخا محتفا بزمر، وتجاهه من الكتب أمهاتها، وقد طرزت حواشيها، وهويقلب كتابا كتابا، ويشرح بابا بابا، ويقول [ملقيا اللوم على أطباء عصره] اقتصروا من العلم على جس العرق بغير عرفان، ومن القارورة على الأصباغ والألوان، وخبت نجوم أسرار جالينوس وبقراط، ودهت عقود إزاء أفلاطين وسقراط، تالله إن تلك العمائم على عقول البهائم، لوسألت أحدهم مسألة رأيت أرضا ممحلة، ووجوها معبسة، وأمورا ملتبسة، ثم أنشد:

يخفون أحاديثا لمكتسب وفي السؤالات يبدون المعاذير
ولا تقوم براهين لمعتذر يقول ذا العلم عندي كان مستورا
ما أتعبوا خاطرا في كشف مسألة ولم يعدوا لرد الخصم تقريرا
بالبخت يسيرون ما يبرون من سقم وعن الخطاء يذمون المقاديرا

أمهرهم لا يدري لم بعض الأمراض يعدي، وبعضها لا يعدي، ومنها ما يتوارث عن الآباء فلا يردي، ولم الفالج والاستثقاء مع عموم الفساد ، لا يتناقل من الأجداد، وهل دم الكبد غير دم العروق؟ أم ليس بينهما فروق؟ وأين محل الحرارة الغريزية..." ص ٣٠٢

وعندما يبئر الراوي ملامح البطل الخارجية ، يظهره شيخا ، تجاهه أمهات الكتب، وأنه ذوعلم واسع، فقد أرد أن يبرزه شيخا مهيبا، قد اكتسب حكمته من سنينه، وجمع إليها حكمة الكتب، التي أسهب الراوي في وصفها، ثم حديثه المرتب في مسائل الطب، كل ذلك يصنع منه الراوي شخصية الطبيب الأريب، المجرب الحكيم، الذي تعلوه المهابة ووقار العلماء، عندما يجعله يقلب كتابا كتابا، ويشرح بابا بابا.

ونجده يعيب أطباء عصره، وينعي عليهم تقصيرهم في معرفة أسرار جالينوس وبقراط، وأفلاطون وسقراط، ويتهمهم بأن لهم عقول الحيوانات مع ما يبدومن ثراء ملابسهم ، وجودة عمائمهم (ربما يشير إلى وجود زي خاص بالأطباء).

ويحاول البطل في شعره أن يكشف جهل أطباء عصره ، عندما يذكر أنهم إذا سئلوا لم يجيبوا، وقدموا الأعذار، وأنهم صاروا يعملون بالبخت والحظ، فإذا شفي مريض فذلك من حسن حظهم، وإذا هلك ذموا المقادير، وألقوا عليها المعاذير، ولم يعترفوا بالتقصير.

ثم يستعرض خلال عرضه الأدبي النثري معرفته بالطب، في عصره ، فيذكر من الأمراض الفالج والاستسقاء، ويعير أطباء عصره أنهم لا يعرفون الفرق بين دم الكبد ودم العروق، وما الذي تتغذى به الأعصاب؟ وكذلك يذكر الحرارة الغريزية، وغيرها من المصطلحات الطبية في ذلك العصر.

ويوردها من خلال أساليب إنشائية ، لتشويق المتلقين ، إلى معرفة حقائق ما يقول، ويواصل طرح الأسئلة ، في استفهاماته المتتالية، ولكنه لا يشفي غليلهم بتقديم الإجابات، وإنما هويحاول إظهار سعة علمه، وإحاطته بمجالات الطب المتعددة، وإبهار المتلقين بذلك.

والجديد في هذه المقامة هوأن الراوي أيضا دون سائر الزمر والجماعات التي التفت حول البطل ، كان _ كما ذكر في مفتتح المقامة_ يشتغل أيضا بالطب.

فيدخل مع البطل في مباراة يستعرض خلالها ثقافته الطبية ، فازدحمت المقامة بالمعلومات الطبية ، وهي لا تصب في صالح الشخصيات فقط، ولكن بالأحرى تصب في صالح المؤلف ابن ماري، وتظهر معرفته العميقة بالطب، وتوظيفها في المقامات.

ويعبر الراوي نيابة عن الجمهور عن انبهاره بعلم الطب" قال الراوي فحرت بمعضلاته، وتقت إلى حل مشكلاته، فقلت أيكون مثلك في هذا الإقليم ، ولا يتصدى لهداية التعليم".

ولعل المستفيد من طرح هذه الأسئلة هوالراوي داخل المقامة، وخارج السرد هو المؤلف، الذي يثق بعمق علمه، وإنه جدير بالجلوس لتعليم الطب، ويفيد هذا السؤال داخل السرد أنه يفتح بابا أمام البطل ، ليتكلم في أمرين :

- الأول: خاص بالكدية، وهو ذم الزمان، وقلة الكرام، عندما يقول البطل: "نوء الكرم أخلف، وعرى الزمان حرف، وساد الطغام، فما يفرق بين الحكمة والبغام"ص٣٠٣.

- الآخر: استعراض معرفته بالطب ،عندما يعيب أطباء عصره بالجهل، فيقول: "أحدكم يحكم على الروافد بالبرودة، وعلى الأفيون بالحرارة، يقتنع من الطبيب بسبره دون سبره، وإن جادلته لم يصبر على الكفاح، يلسع ويصي، ويظلم وأضي، ولا يعلمون أن للأمراض مراتب، ، يسهل صعبها القانون الراتب، ومنها ما يهلك المريض قبل التدابير، ولا تفيد معه العقاقير... " ص ٣٠٣ ـ٣٠٤

ثم يقوم الراوي كعادته باستفزاز البطل، ليخرج ما يكتمه من أسرار، قال الراوي:" فأخذت بعض كتبه، فلسبني بحمة عتبه، وقال : أحدكم يقدم إقدام الضرغام، ولا يفرق بين الشهد والسمام، ويقتنع بالقراءات تقاليدا... لا يدري حدود التعاليم ورسومها ، من الحد السليم ، ولا الثمانية الفوائد التي في صدور القراءات كالقلائد ... ثم أنشد:

فقت الأولي فاقوا الورى	بالفهم في سر الطبيعة
فبكل شخص لي على	ما في بواطنه طليعة
فغدوت أعرف نبض من	يخفي التواصل والقطيعة
ففضائلي عند الأكا	بر والأولي فاقوا ذريعة
أيام تأتي للورى	بتراجم النعمى شريعة
ومرابعي مأهولة	بتواتر الجدوى مريعة
لا أختشي نوب الزما	ن ولا حوادثه الفظيعة
وأوامري مسموعة تروى	ومنزلتي رفيعة

كان لابد أن يتسم الراوي في المقامات بالفضول، لدفع البطل وتحريكه نحو القول أو الفعل، وفي هذه المقامة يعبث الراوي بكتب البطل ، فيتعرض لتفنيده وتوبيخه، لأنه لا يدري كيف ينتفع بالكتاب منها.

ولكن هذا العرض الأدبي الذي يقدمه البطل نثرا وشعرا ، لا يفيد في تنامي الأحداث، ولا في حدوث الكدية ، التي هي غاية المقامة ، فيضطر الراوي إلى نقلة سردية أخرى في سرد سريع الإيقاع، يعتمد على التلخيص، فربما قد شعر المؤلف بأنه قد أطال في المقامة ، ولابد من إنهائها بعد إضافة حيلة الكدية، لكي تكون مقامته مقامة سردية مكتملة الأركان؛ فقد تورط في استعراض مهارته الطبية، وأسهب في ذلك ، فاضطر في الإيجاز في سرد الكدية، فالتوازن مختل بين العرض الأدبي وحيلة الكدية .

قال الراوي :" قال يحيي بن سلام فما لبثت أن ورد خادم حصان، وأخذ يخدعه كما يخدع الحصان، فقال تالله ما أرحل حتى أنحل، ولا أعود مريضا حتى أعطى عطاء عريضا، ولا أعاني سقيما حتى أرى أمرا مستقيما، فنقده الغلام بقرطاس، فحين قام امتزجت بديمه، ودخلت دار السلطان مع خدمه، فلما مثل بحضرته، والتحق بزمرته شاهد مدنفا، لم يبق منه إلا لفا بأنفاس متصاعدة، ونفس مترددة، فقال هذا ما لا يمكن تلافيه، ثم حل جلابا بماء الورد وسقاه، فانتعش انتعاشة ظن أنه شفاه ، فأفرغت عليه أكياس النضار أنواعا، وصار بينهم ملكا مطاعا، فمذ أبس انخداعهم نهض، وقال في غد ينقضي المرض، فقلت يا من يمد في العلم باعا، ويرفع في الفضائل شراعا، أترجولمن عانيت انصلاحا، أوترى لمزاجه صلاحا، قال: فأسرع فقد آن أن يبور، وينادى بالويل والثبور، فقال الراوي فتفرقنا شغر بغر، وقد بلغت الأرواح الثغر"ص٣٠٤_ ٣٠٥

ويلاحظ أن كل ما سبق من حوار بين الراوي والبطل ، تخللته عروض أدبية من النثر الفني ، والشعر، لم يكن إلا بهدف الكشف عن خصائص الشخصيات: الراوي والبطل، من خلال حديث كل منهما، واستعراضه لمعلوماته الطبية ، مما يعود بالنفع في النهاية على المؤلف الذي أظهر معرفته بالطب، خلال هذا الحوار الذي استغرق أربع صفحات.

ثم تكون الأبيات التي أنشدها البطل مشتملة على فخر بما بلغه من علم الطب، وأنه يستطيع بمجرد جس النبض ، أن يعرف حقيقة مريضه. والأهم أنه يذكر ما اعتاد المكدي على ذكره من تغير الزمان به ، فقد صار إلى هذه الحالة

الرثة، بعد أن كانت مرابعة مأهولة بتواتر الجدوى مريعة، أما الآن فقد جار عليه الزمان، وأزرى بمنزلته الرفيعة.

ويلاحظ ما يأتي:

_ إن ما تقدم في المقامة من سعة علم البطل والراوي بالطب يمهد للصحبة بينهما، كما يغري الناس بالتماس الطب عند البطل، فربما سمع به السلطان ، من قبل هذا العرض، أومن بعده.

_ وتبدأ أحداث الكدية بأن يرد إليه خادم السلطان ،راكبا حصانه، ويظهر عليه سمت العاملين في القصور، فيمتنع عليه البطل المكدي، ولا يقبل إلا بعد طول إلحاح، أومساومة وإغراء من الخادم، ويشترط عليه أن يأخذ أجره مقدما قبل أن يرى المريض.

_ يصاحبه الراوي لأول مرة إلى دار السلطان، حيث تقع حيلته وخدعته، وذلك داخل القصة(الحكاية)، لأنهما يشتركان في معرفة الطب، أما في الخطاب السردي، فلكي يقوم بدور التعرف ، والكشف والفضح لشخصيته.

_ وجد البطل المريض مدنفا على شفا الموت، فلم يصدقهم بحاله، مخافة على نفسه، وعلى ما جنى من أموال، فلجأ إلى حيلة طبية ، أن يسقي المريض الجلاب(السكر)، بماء الورد، مما أنعش المريض انتعاشة مؤقتة.

_ هنا يحدث التعرف وهوأحد المكونات الأساسية للخطاب السردي في المقامات، فعندما شاهد الراوي حالة المريض أدرك_من خلال خبرته الطبية_ أن البطل يحتال عليهم، وأن الانتعاشة المؤقتة ستزول سريعا.

_ وعندما صارح الراوي البطل بحقيقة حيلته، بواسطة الاستفهام الإنكاري، حيث أنكر عليه أن يعالج مدنفا، ويعد خيرا، ولكن البطل امتاز بالذكاء اللغوي، عندما قال " في غد ينقضي المرض" ، ومن خلال هذه التورية يفهم المتلقون أن المريض سيتعافى.

أما المعنى البعيد فإن المرض سيذهب ، لأن الموت سيحل مكانه، وبعد أن تصارحا، واصطلحا على حقيقة الموقف، طلب البطل من الراوي أن يسارع في الهرب قائلا :" فأسرع فقد آن أن يبور، وينادى بالويل والثبور " ، ويستجيب له الراوي، فيذكر :" فتفرقنا شغر بغر، وقد بلغت الأرواح الثغر(الحلقوم)".

ويلاحظ توالي الأفعال ، ليحقق سرعة الإيقاع في السرد، فبينما استغرق العرض الأدبي أربع صفحات، استغرقت الكدية قرابة نصف صفحة، وتمت خلالها أفعال عديدة، الذهاب إلى قصر السلطان، والكشف على المريض، ثم إعطاؤه الجلاب، وانتعاش المريض، وفرح أهله به ، وأخذه المال والذهب، ثم المصارحة بين البطل والراوي، وسرعة الهرب.

المقامة البابلية : المقامة الثالثة والثلاثون : ص ٢١٩

تمتاز هذه المقامة بالبنية البسيطة، وتندرج تحت مقامات الكدية بواسطة الطب، وتضج بالمعلومات الطبية ، حيث يتناقش كل من الراوي والبطل، ويأخذ موضوعا مهما وهو السموم والترياق.

تبتدئ المقامة بعتبة نصية رئيسة : البابلية: نسبة إلى بابل ، وترتبط بابل بثلاثة شجون:

_ الأول : إنها من البلدان العراقية، ومؤلف المقامات عراقي.

_ الثاني: إن لها ارتباطا باليهودية، ومن المعروف أن المسيحية تجعل التوراة جزءا من كتابها المقدس، ويسمى العهد القديم، وفي مدينة بابل _ كما تحكي التوراة_ تبلبلت الألسنة [١]. والمؤلف ابن ماري كان طبيبا مسيحيا بصريا .

_ الثالث: ارتبطت بابل بالسحر، وما أنزل على الملكين هاروت وماروت لقوله تعالى: (ومَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ ومَارُوتَ) [٢].

ولكنها في كل الأحوال مكان سردي، يصنعه الراوي من خلال التراث السابق، ورؤيته على النحو الآتي :

_ الراوي والفضاء: "حدث يحيي بن سلام قال: نزلت ببابل ، وقد عدم الطل والوابل، ونضبت عيون الوفد، وتهلهل ثوب الرفد، أرود مسارع الحذيا، فلا أجد ريا، وأتنسم أنفاس الحرمان بكل مكان، فحين غلب الهلع، وانقمع الطمع، قمت مغدا إلى بعض الرحاب، لأستمطر كل سحاب، وإذا بجمع كثيف..." ص٢١٩

(١) اسم ناحية منها الكوفة والحلة ، وقيل إنها باب العراق ، وأن أول من سكنها نوح عليه السلام ونزل بها الملكان هاروت وماروت ، ينسب إليها السحر والخمر ، وترتبط بها أساطير شتى ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المصدر السابق ، ج ٢ ص٣٠٩

(٢) البقرة ١٠٢

فيبدو الراوي في صورة الرحالة، الذي حط رحاله، ونزل ببابل، ثم يبدو أيضا مكديا، طريد الفقر والحرمان، فبعد أن شاهد الجدب، وقلة الرفد ، ، يذهب في طلب العطاء، " قمت مغدا إلى بعض الرحاب، لأستمطر كل سحاب" فقد قرر أن يسأل الناس .

أما الفضاء فهو مدينة بابل ، في عام قحط وجوع، يعبر عن ذلك بقوله :" وقد عدم الطل والوابل"، أي المطر الغزير والقليل، أي انعدم المطر تماما، وتظهر الفاقة من خلال قوله :" نضبت عيون الوفد، وتهلهل ثوب الرفد، وأتنسم أنفاس الحرمان بكل مكان"، فكل سكان هذا المكان فقراء، لا يجدون ما ينفقون.

- البطل: ثم يمهد لرؤية البطل ،مستخدما إذا الفجائية ، فهودائما يلتقيه فجأة، ولا يجده إلا في جمع كثيف، يقول الراوي :"وإذا بجمع كثيف يؤمه شيخ يزيد عن العمرين وينيف، وهويظهر أنواع الأطباق، ويقابل كل طبق بترياق، ويبرز أفعى أفعى ويقول إن في الترياق لنفعا، ويتوشح بالحيات، توشح من ملك الآيات، وما في القوم إلا من ينزع سلمه، ويطلب سلمه، ويطول رشاه قبل أن يرشاه، ويقدم جدواه قبل نجواه، قال الراوي فتلمحت صفيحات نهاره، فإذا هو أبوعمرو، يتنوع في دهاه، فدنوت منه كالمازح"[ص٢١٩].

ويعتمد الراوي في التقديم الفني لشخصية البطل على مظهره الخارجي، ويجعله في هذه المقامة شيخا يزيد عن العمرين وينيف، ويقصد بذلك أن يبرزه في مظهر مهيب ، يمارس سلطة الكبر على الناس، ثم إن كبر السن مدعاة أيضا إلى الحكمة، وعمق الخبرة، وكذلك أيضا يتناسب مع الشهرة التي تجعل الراوي يتعرف عليه من أول وهلة ، فضلا عن اعتياده رؤيته في كل مقامة.

أما الحيلة في هذه المقامة ، فتدور حول السموم والترياق، ويظهر وقد أمن مكر الحيات، فيصوره الراوي بقوله :" ويتوشح بالحيات ، توشح من ملك الآيات"، وربما تحيلنا كلمة(الآيات) إلى موسى ، الذي كانت إحدى معجزاته عصاه التي تتحول حية تسعى ، قال تعالى : (ومَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوكَّأُ عَلَيْهَا وأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ولِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا

يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)") [١]

ثم يصور إقبال الناس عليه ، الذي يجمع بين الرهبة بسبب الحيات المحيطة به، " وما في القوم إلا من ينزع سلمه، ويطلب سلمه"، أي يحاول أن يتقى شره، بتقديم العطاء له.

ربما أشبه البطل حياته وثعابينه في الأذى، وأيضا تلونها واحتيالها، فكل يدنو منه رويدا رويدا ، ويرشوه بالمال ، فإذا كان الترياق طريقة للقضاء على سم الأفعى والسلامة منها، فإن العطاء هو الترياق الذي يسلم به الناس من سم البطل، ومن هنا يظهر الفرق بين سلمه الأولى وسلمه الثانية في القول السابق، وهذا يؤكد أن لكل سم ترياقا يؤثر فيه، ويقضى عليه .

ويلاحظ أن الهدف من الكدية ، التي حقيقتها التلون والمكر والدهاء، تتحقق منذ رؤية الحيات، التي توشح بها ، وعند التأويل تطابق معها، فقد سارع الناس عند رؤيته " يظهر أنواع الأطباق، ويقابل كل طبق بترياق، ويبرز أفعى أفعى"، سارع كل منهم إلى العطاء، وكأن الكدية قد تمت ، لأنها في جوهرها عبارة عن احتيال ومكر ودهاء.

وهنا منتهى الكدية ، ولكن يبقى العرض الأدبي، فالكدية تنبني على عنصرين:

_ الأول : التلون والاحتيال من المكدي.

_ الثاني: العطاء من الجمهور .

وهذان الشرطان قد تحققا؛ فالناس يتملقونه بالعطايا، "، ولذلك وصفه فيما بعد بالدهاء بقوله :"يتنوع في دهاه"، ويقدم – كل واحد –جدواه قبل نجواه" فيتناص مع الآية الكريمة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً) [٢]

(١) سورة طه١٧-٢١

(٢) المجادلة ١٢

العرض الأدبي :

ويلاحظ أن المعرفة تسبق العرض في هذه المقامة ، فقد عرف الراوي البطل قبل العرض الأدبي، ولذلك فهولا يكاشفه ولا يفضحه، فربما يعبر ذلك عن سابق خبرته به ، ومعرفته إياه يقول الراوي: " فتلمحت صفيحات نهاره، فإذا هو أبوعمرو يتنوع في دهاه، فدنوت منه كالمازح، وقلت بحق من قرب النازح، أتعرف من أبدع الترياق"ص٢١٩ . وتتحرك هذه العبارة على مستويين:

_ الأول: يشير إلى أن هذا العرض قد تم نهارا، وبذلك يخالف ما هومعتاد في أزمنة المقامات لأن أحداثها تتم ليلا ، لأن الليل _ كما يقولون_ أخفى للويل.

وربما يتناسب ضوء النهار مع الكشف عن أنواع الحيات ، وألوانها، ونقشها، واختلاف أنواعها.

_ الثاني : قد يحمل هذا التعبير على الكناية عن ظهور أمر البطل للراوي.

ويلاحظ أن الراوي قد عرف البطل سريعا، فما إن تأمله حتى اكتشفه، على الرغم من قوله أنه كان:"يتنوع في دهاه"، وتبدوالمعرفة الوثيقة بينهما في الممازحة والإيماء إلى أسفاره، وتقلبه في البلاد.

فإن النازح البعيد يقصد به البطل، وتكون بداية أسئلته ، ثم تواليها كاشفة عن كل من ثقافة البطل والراوي الطبية، التي هي بالتالي من ثقافة المؤلف التي يضعها على لسان الراوي والبطل على السواء.

ويبدأ الحوار بينهما على النحو الآتي:

" وقلت بحق من قرب النازح ، أتعرف من أبدع الترياق؟ ومن بإتمامه فاق؟ وهل حصل بالقياس أم بالاتفاق ؟ ومن اخترع أقرصته قرصا قرصا؟ وبالغ في تأليفه واستقصى؟ وكم مقدار عمره في دفع السموم؟ وأي وقت يقاوم الأمراض على العموم؟ وكم مقدار الشربة منه لكل مرض؟ وهل فعله بالجواهر أم بالعرض؟ فحين امتلأ بالاعتراض وطبه، وتفاقم في الملأ خطبه، شهر لسانا كالجراز، وأخذ في رد الصدور والأعجاز، ثم قال ما العلة في دفع سموم الأفاعي بلحومها؟ وأين محل نسيمها من سمومها؟ وما القواتل منها التي يعجز الترياق عنها؟ وما الحية التي ريحها يهلك؟ وما الدواء الذي يذهب نظرها؟ وما الذي ينفرها عن وطنها؟

وما واسع عطنها؟ وما الذي يعيد بعرها ، ويقضي وطرها؟ فحين سرد ما سرد، شحذ صارم نظمه وجرد وأنشد"ص٢١٩-٢٢٠.

ويلاحظ أن أسئلة الراوي تبدو وكأنها من صنع البديهة، فهي تتناول تاريخ الترياق، من الذي اخترعه؟ فهي أسئلة تدور حول الطب ، لكنها لا تدخل في جوهره، ربما يريد المؤلف في ذلك أن برز فضل البطل على الراوي، وربما يريد المؤلف أن يظهر سعة علمه بأصول الأشياء، وفلسفتها حيث يستخدم مصطلحات الفلسفة بقوله:" وهل فعله بالجواهر أم بالعرض؟".

وتكون أسئلة الراوي محفزة للبطل على إظهار علمه، ويعبر الراوي في لغة سردية عن حنق البطل، وغضبه من أسئلته، وتصديه للرد عليها، ويلجأ إلى السرد، فتتوالى الأفعال الماضية،" امتلأ بالاعتراض وطبه أي إناؤه، وتفاقم في الملأ خطبه"، وكأن هذه الأسئلة تروم فضح البطل أمام الجمهور.

ثم يصف بلاغته في الرد:" شهر لسانا كالجراز" أي السيف(١) ، ثم استعمل الراوي مصطلحات بلاغية من علم البديع بقوله: "وأخذ في رد الصدور والأعجاز"، يظهر بها بلاغة البطل ومراجعته لكل ما سبق، واقتداره على الرد عليه.

ويلاحظ أن أسئلة البطل تدخل في حقائق علم الطب، وتظهر معرفته بحقائق الحيات وسمومها.

وربما اقتصر الراوي والبطل على الأسئلة ليحيطا بمسائل واسعة، تدخل في نطاق هذا الضرب من الطب (السموم والترياق)، ويقتصر فضاء المقامة على تحمل أجوبتها ، لأن غرضها منذ البداية هوإظهار الأدب والبلاغة، ثم المعرفة بالطب، فالراوي والبطل والمؤلف؛ كل منهم أديب ، وطبيب، والمؤلف المسيحي يريد أن يرسم شخصية الراوي والبطل بأنهما عارفان مثله بفنون الطب؛ فالهدف سردي لا تعليمي.

ويصب هذا التصوير وما ظهر خلاله من علم وفلسفة وتاريخ في صالح المعرفة الموسوعية للطبيب الأديب.

(١) انظر ابن منظور ، لسان العرب مادة جرز

ولكي تكتمل صورة الأديب ، ويبدو في شكل موسوعي، يقدم أيضا عرضا شعريا:

ليس موسى في فنه فاق فني أنا هارون في النهى فرط ذهني
أنا علامة البلاد ففي كل محل تلفى شآبيب مزني
فقت بالمكر كل إنس وبالسـ ـحر وما ابتليتم كل الجن
وإذا ما خشيت من رشق طاغ كان عقلي في النايبات مجنى
لست أزهولعزة لاختياري طبع دهر ولا أذل بوهن
أين عاد وأين أبناء عاد؟ كلما أظهروه عادا لدفن
خذ من الدهر ما صفا إنما الأ يام تعطي الهنا ثم تعنى
واجن كل الثمار بالقطف والنحـ ـت بالسخط والرضا والتجني
واسكن النفس في سرور إنها في جسومنا في سجن
وتنقل في كل صقع مسير الطير يختال بين وكر ووكن
فصروف الأيام تأتي على غير قياس تقص وفي الأثر تدني

فتتضمن أبياته ما يأتي:

_ يستحضر الشاعر موسى عليه السلام ، وذلك لما ارتبط به موسى من معجزة الحية أوالثعبان، الذي التهم ثعابين سحرة فرعون ، ويبدو أكثر جرأة عندما ينسب السحر لموسى، وينسب النهى والتعقل والأناة لهارون، ويلاحظ أن هذه الرؤية الدينية هي رؤية إسلامية.

_ حيلة الكدية وتتضمن الآتي:

– الفخر بنفسه: ويظهر ذلك في قوله" أنا علامة البلاد"، فالمكدي يفخر كثيرا بما يمتاز به من علم، يبدد بشآبيبه ودفقاته، المحل وجدب العقول ، وفي هذا انعكاس لثنائية الجدب/والخصب ، حيث يسعى المكدي – في الغالب – فرارا من الجدب إلى الخصب . ويفخر في البيت الثاني أنه يفوق في مجال المكر دائما كل الإنس.

– أما في مجال السحر ، فهويجمع بقية الثقلين، فيذكر الجن، فبسحره يتفوق عليهم، أي أنه وحده بمفرده، يفوق الثقلين (الجن والإنس).

– يرتبط الوعظ بحيل الكدية لدى البطل المكدي، ولا يرتبط لديه بحس ديني، ولذلك يستحضر الأمم السابقة التي سادت ،ثم بادت، عندما يقول: أين عاد وأين أبناء عاد؟

– تشير أبياته إلى التلون ، وإلى السعي الجاد، والحركة الدءوب، والتنقل بين أصقاع الأرض، من أجل الحصول على العطاء، فيقول:

واجن كل الثمار بالقطف والنحـ ـت بالسخط والرضا والتجنى

وتنقل في كل صقـــــع مسير الطير يختال بين وكر ووكن

– يلقي المكدي اللوم دائما على صروف الدهر ، وكأن الزمان هوالذي أخنى عليه، وطمس عبقريته، فجهله الناس، واضطره ذلك إلى الكدية والاحتيال، وهذا ما يذكره الشاعر في البيت الأخير : فصروف الأيام تأتي...

التعرف: لكن التعرف بوصفه ركنا أساسيا في بناء المقامة يأتي في ختام العرض الأدبي ، يقول الراوي ملخصا صنيع البطل بواسطة الأفعال المتوالية في إيقاع سريع " ثم جمع سلاله ،وقطع سؤاله، قال الراوي فدنوت منه أنافثه عن نجره، ولم الطغيان، وقد نصل ليل فجره، فضحك من بلادتي، وهزأ بإعادتي ، وتركني والغباوة، ومضى إلى ساوة" ص ٢٢١

فيقص علينا الراوي بتوالي الأفعال الماضية،" ثم جمع سلاله "، أي متاعه وأدواته، "وقطع سؤاله" أي كف عن طلب العطاء، فقد حاز _ضمنيا_ منه ما أراد، يقول الراوي :" فدنوت منه أنافثه، عن نجره" أي يستطلع أصله، ولكي يلومه كما هومعتاد في أدب المقامات على كديته، وقد اجتمع على لومه شيب شعره، يقول الراوي للبطل : "ولم الطغيان وقد نصل ليل فجره".

ويلاحظ أن المسافة المعنوية أوالقيمية بين الراوي والبطل تبقى قائمة، يقول الراوي: "فضحك من بلادتي، وهزأ بإعادتي وتركني والغباوة".

فالراوي بالقياس إلى البطل يتصف بالبلادة والغباوة، فالراوي ينحط عن مكانة البطل، ربما يرجع ذلك داخل السرد إلى ما يقوم به من دور في الحيلة والكدية، والعرض الشعري والنثري ، وربما يرجع خارج السرد لكونه هو الذي يحتال ويخدع ولا ينخدع ، شأنه شأن الراوي والمتلقين ، أولأن الراوي هوظل البطل، فالبطل هو الأصل والراوي صورة منه.

ويلاحظ أن هذه المقامة بسيطة البناء، لا تشتمل إلا على حبكة واحدة، وتعتمد على العناصر البنائية الآتية :

_ رحلة الراوي.

_ العثور على البطل.

_ البطل يقدم عرضه النثري والشعري.

_ التعرف الذي تختتم به المقامة.

مقامة ميافارقين ص ٣٢١

ويظهر ابن ماري أيضا معارفه الطبية ، ويوظفها خلال هذه المقامة خدمة لأغراضه الأدبية ، التي تتمثل في كتابة المقامة السردية القائمة على موضوعة الكدية .

ويمكن تحليل البناء السردي للمقامة على النحو الآتي:

– الراوي وتقديم الفضاء:

قال يحيي بن سلام:" لبست حلة المفارقين، ورحلت عن ميافارقين، فبينما أنا سائر، وإذا بهم قد ألف الدوائر، وبين لديه قوارير، وسرر من أخيار العقاقير، وهو يتأفف ، ويقول ما يروق على كل منقول..."ص٣٢١.

وإذا كان من المعتاد أن يشير العنوان إلى النص، فإنه لم يرد في هذه المقامة ، إلا من أجل سجعة في الغالب، ترد في كلام الراوي" لبست حلة مفارقين، ورحلت عن ميافارقين". ولكن العبارة تكشف عن رحلة الراوي المتكررة، فالراوي يظل في رحلة دائمة ، ولا يتوقف إلا إذا التقى بالبطل، ويقول في هذه المقامة " فبينما أنا سائر، وإذا بهم قد ألف الدوائر". فالراوي كان يريد السير إلى الأمام، لكن الدوائر توقفه، وتجعله يتحرك في المكان ذاته.

ويبدو البطل رجلا(هما)، أي يبدو رجلا صعب المراس، ذو همة وبأس، لايتوصل أحد إلى غلبته. (١)

وقد قدمه الراوي في صورة الأديب البليغ الطبيب صاحب الخبرة، التي أحاطت به القوارير، وصرر العقاقير.

(١) انظر لسان العرب مادة همم.

فقد ظهر الراوي أيضا خدن أسفار، وقدم لنا فضاء الكدية دون أن يذكر لنا المدينة التي حل بها بعد خروجه من ميافارقين، ووظفه في خدمة إبراز شخصية البطل ورسمه، ليكمل البطل تقديم صورته بنفسه من خلال عرضه الأدبي النثري والشعري، فيقول :" ما الدواء الذي جمع العناصر؟ وحيثما برز غير قاصر، وأي دواء يسهل طفلا، ويعقل كهلا، وما الذي دمه قتال، ولحمه في الصحبة يغتال؟ وأي دواء إن تجزأ أردى؟ وإن ترك بحاله أحدث بردا؟ وما الدواء إن أفرط في هوانه قصر، ويأتي بالكرامة لمن في إكرامه تبصر، فحين ختم ما لغز؟ وفتن بمهمته وعجز، قال اختلط المرعى بالهمل، والقشيب بالثمل، فلا دواء يركب، ولا طرف فائدة يركب، كثرت المحن ، وقل الممتحن، عادت الحكمة خرافة، تبرز في حلى العيافه، أنا ابن بجدتها، ومنضد نجدتها، وراقم علمها، وكاشف مبهمها، وأنشد" ص ٣٢١

فقد أخذ الراوي يحيط شخصية البطل بالغموض، ويهول شأن علمه أمام المستمعين، واعتمد البطل في تسويق شخصيته إلى الجمهور على ثلاثة أمور:

_ أسلوب الإلغاز ، الذي يوهم ولا يحقق، ويشوق ، ويثير الأوهام، ويستثير غريزة الفضول لدى المستمعين، خاصة عندما يعتمد على إبراز الخصائص المتناقضة للأدوية، على شاكلة قوله: " أي دواء يسهل طفلا ، ويعقل كهلا؟".

_ لوم المشتغلين بمهنة الطب في عصره، واستهجانه شأنهم بقوله :" اختلط المرعى بالهمل، والقشيب بالثمل "، يقصد أن الباب قد فتح واسعا أمام المشتغلين بالطب، فدخل من خلاله من لا يحسنونه، ولا يعرفون حقيقته، كما قال:" فلا دواء يركب، ولا طرف فائدة يركب ، عادت الحكمة خرافة"، وهذا هوالأهم ؛ فقد تحول علم الطب الذي هوجماع الحكمة إلى مجال تدخل فيه الخرافة.

_ يذكرالبطل أنه الوحيد المتبقي في هذا الزمن الذي يعرف حقيقة الطب، ولا يخالط الزيف فهمه ومهنته، يقول:" أنا ابن بجدتها، ومنضد نجدتها، وراقم علمها، وكاشف مبهمها"، فقد عفا العلم ، ولم يبق من يحسنه سوى هذا الرجل.

وبعد أن فرغ من عرضه الأدبي النثري، استطرد إلى عرض شعري قائلا:

صه سلوني تجدوا خبيرا واستشرحوني تنشقوا عبيرا
صيرني فرط الطوى أسيرا لا واجدا خدنا ولا ظهيرا

ولا أرى مساعدا نصيرا ولا كرما يجبر الفقيرا
ولا معينا يمنح النقيرا ولا وسيما بالعلا جديرا
من جوده يستزري الكبيرا فقد غدوت في الورى حقيرا
لا مالكا نبلا ولا جفيرا فرط الطوى ألبسني سعيرا
قد كنت في جبل الري أميرا يزف نحوي التبر والحريرا
كل خطير لا يرى خطيرا خبر فضلي أولا أخيرا
كم حيلي قد حيرت قصيرا وقصرت في فنها التقصيرا ص ٣٢٢

فيتضمن شعره ما يأتي :

_ الفخر بسعة علمه ؛ فهوخبير إن سئل، وعبير إذا فتش أونشق، ويختتم المقطوعة بذكر فضله وسعة حيله، بقوله " كم حيل قد حيرت قصيرا" (١)، وأدرك الناس بسببها تقصيرهم عن عقله وذكائه.

_ شكوى سوء حاله في الحاضر شأن المكدين؛ ففي البيت الثاني يشكو فرط الطوى، والجوع المستمر، وأنه لم يعد يملك شيئا جليلا أوحقيرا، فليس معه جفير ولانبل، مكتمل الإعدام.

ثم يشكومن أنه لا يجد- لفقره وعوزه -مساعدا نصيرا، وتتضمن هذه الشكوى الذاتية شكوى البطل من الناس في عصره، فهولا يرى- مستخدما لاالنافية والفعل المضارع الذي يفيد الحال والاستقبال- مساعدا على الإطلاق، فقد خلا عصره من المساعد والنصير، وكذلك من الكريم الذي يجبر الفقير، فقد عدم المعين الذي يمنح أي شئ ، حتى لوكان نقيرا حقيرا.

_ يلقي اللوم على الزمان ، فقد أصابته صروفه ، وغيرت أحواله، فيذكر في البيت السابع أنه كان يعيش في جبل الري عيشة الأمراء، يزف إليه التبر والحرير ، مما يعبر عن ذروة الغنى.

ويؤثر هذا العرض الأدبي في المتلقين، كما يذكر ذلك الراوي بقوله:" فما كان إلا كخطفة برق، أونبض عرق، حتى حياه غلام ،عذب الفكاهة، يدل على فضل

(١) انظر عن قصير مستشار الملك جذيمة ، أبوالفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال ،الأستانة ، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة ،١٣٥٥ هـ ، ج ١ ـ الفصل السابع ، فيما أوله خاء، ص٢٤٣-٢٤٦

ونباهة، ثم أبرز دينارا ، ورشقه به احتقارا، فلما نور الزهر كمامه، قام ونفض أكمامه "ص٣٢٢".

فيبئر الراوي تأثير أدبه في المتلقين، ويصور الراوي مجتمع الأدباء ، الذي يشتمل على كل أديب عذب الفكاهة، يدل لفظه – في الغالب– على فضل ونباهة.

وذكر الراوي أيضا أن الناس قد اقتدوا بالغلام في قيامه بالعطاء ، مما جعل البطل المكدي يحصل على مراده ، وينهض نافضا أكمامه.

ويعود البطل في عرض نثري آخر إلى تقديم نفسه مرة أخرى بوصفه طبيبا، متفردا في عصره ، فيقول آسفا على حال الطب في عصره :" بارت الصناعة، وقلت البضاعة، وهانت الأوصاف، وعدم الإنصاف، تالله لقد عاد حنين بخفي حنين، وابن بطلان في ربقة البطلان"ص٣٢٢".

فيظهر معرفته بتاريخ الطب عند المسلمين، من خلال تورياته، فقد عاد حنين بخفي حنين، فحنين الأولى هوحنين بن إسحاق الطبيب المترجم،(١)أما حنين الثانية فهي الواردة في المثل العربي القديم. المثل والقصة (٢)، وفي السجعة الثانية يوري عن شخصية الطبيب الكبير ابن بطلان(٣)

وتحتوي هذه المقامة أيضا على حبكة أخرى ، إذ احتال فيها البطل على أمير المدينة، وعالجه بشئ من خصائص التيس الأسود، وعندما يهم بالارتحال ، يعلق الراوي بأذياله، ويحدث التعرف، الذي يعد أحد العناصر الأساسية في الخطاب المقامي ، فيذكر الراوي:" فلما قبض الجائزة ، وسار بالصفقة الفائزة، تعلقت به وعقته عن مهبه، فقال دع اللوم محرق القوم، فالهزل سلم إلى بغية الطلب، ومن فاته الغلب خلب ،وأنشد :

رأيت قوما تيوسا	فرضتهم بالتيوس
والعمر بين نعيم	يمضي هباء وبوس
كم قبلنا عن أناس	جاؤوا بعلق نفيس
أغنوا الزمان بعلم	مشيد عن دروس

(١) انظر ابن أبي أصيبعة ، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج٢ ، ص٢٦١

(٢) انظر الميداني ، مجمع الأمثال، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٦

(٣) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٣٨٥.

نفوسهم لبقاء على جسوم دروس
ما ينفع العلم شيئا على فراغ مكيس
كن هدهدا وابد حينا على بها بلقيس
فنخلة القوم تجنى بالمكر والتلبيس
أوقع بهم كل يوم حربا كحرب البسوس
وبرز بألف لباس من حليه التنفيس
في مسلم ويهودي وصابئي ومجوس
كم ذا أطأ من زماني على وطيس وطيس
ولا يراني دهر إلا بوجه عبوس " ص ٣٢٣_٣٢٤

ويشتمل الشعر الذي يمثل عرضا أدبيا ثانيا من أجل الحبكة الأخرى، التي تتضمنها المقامة، على خصائص خطاب الكدية الذي يمارسه المكدي :

_ ذم أهل زمانه، وتبرير خداعه لهم:

رأيت القوم تيوسا فرضتهم بالتيوس

_ الشكوى من تقلب أحواله، بتقلب أحوال عصره:

والعمر بين نعيم يمضي هباء وبوس

- ويبرر أيضا احتياله، بسبب قوة الزمان عليه، الذي يجعله يسير على الجمر:

كم ذا أطأ من زماني على وطيس وطيس

_ الفخر بالعلماء الأوائل الذين درس على كتبهم، وتعلم الطب منهم، مثل حنين بن إسحاق، وابن بطلان، يقول:

كم قبلنا عن أناس جاؤوا بعلق نفيس
أغنوا الزمان بعلم مشيد من دروس
نفوسهم للبقاء على جسوم دروس

فيذكر أنه قد روى عن علماء أتوا من العلم بكل علق نفيس، أفنى أولئك العلماء أعمارهم في طلب العلم، وتركوا لنا مؤلفاتهم ودروسهم المدونة ، التي تثري العلم؛ فأولئك العلماء هم قدوته ، ويختتم المقامة بقوله : إن مثل هؤلاء ، وإن فنيت أجسادهم، فإن ذكرهم خالد باق.

والنتيجة التي توصل إليها هي أن العلم لا ينفع مع أبناء عصره، وأن الوصول إلى جني نخلتهم لا يكون إلا بالمكر والتلبيس.

ويلاحظ حضور النخلة العراقية ثم يستدعي من التراث حرب البسوس، فالأديب المكدي يجب أن يوقع كل يوم بمعاصريه ، وقعة مشئومة كحرب البسوس[1]، ولذلك يجب عليه أن يتلون وأن يحتال ويمكر بمعاصريه:

كن هدهدا وابد حينا على بهـــا بلقيس
أوقع بهم كل يوم حربا كحرب البسوس
ونخلة القوم تجنى بالمكـــر والتلبيس

أما صور التلبيس على معاصريه فيذكر طرفا منها عندما يستمد من قصة النبي الملك سليمان صورة الهدهد وبهاء بلقيس، وهذه الإحالة إلى ما هوديني قد ورد في المسيحية، وفي الإسلام . ومن صور التلبيس أيضا أن يتقلب في الأديان إرضاء لمعاصريه ؛ فيظهر تارة مسلما، وأخرى يهوديا، وثالثة صابئيا ، وأخيرة مجوسيا، وفق الفضاء الذي يوجد فيه من زمان ومكان وبشر .

وأخيرا يختتم الراوي المقامة بقوله:" ثم أودعني جمرا بوداعه، وآيسني بطول الوصاة في ارتجاعه" ، فتلاحظ الصداقة الوطيدة بين الراوي والبطل ، ولعل هذا التعقيب الأخير يهيئ لقرب انتهاء المقامات.

(١) انظر محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي، محمد أبوالفضل إبراهيم ، أيام العرب في الجاهلية ، بيروت ، منشورات المكتبة العصرية ، ص ١٤٢

الخاتمة

- قدم هذا البحث تعريفا بأديب كبير من أدباء المقامات وكتابها ، هوابن ماري المسيحي البصري المتوفى سنة تسع وثمانين وخمسمائة هجرية ، و مقاماته تضارع مقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات أبي القاسم الحريري ، ويمكن مقارنتها لهم ،لكنه لم يجد العناية النقدية اللائقة بمقاماته، فظلت مقاماته مجهولة ، إلى أن حققت أخيرا ، فكانت دراستنا هذه محاولة لإخضاع مقاماته للدرس النقدي، وإدخالها إلى دائرة الضوء، مما قد يترتب عليه أن تزداد العناية بدراستها من جوانب أخرى متعددة.
- اعتمد هذا البحث على التحليل السردي البنيوي ، وأتبعته بتأويلات فنية وثقافية ، لأن مقامات ابن ماري تنتمي إلى المقامات السردية القائمة على الكدية .
- حاول هذا البحث تشخيص الهوية الثقافية لابن ماري المسيحي البصري المتوفى سنة تسع وثمانين وخمسمائة هجرية ، وحدد تميز شخصيته بانتمائين أساسين هما: المسيحية ، واحتراف الطب ، فضلا عن كونه أديبا عربيا شاعرا وناثرا، وامتد ذلك إلى مقاماته ؛ ليكشف عن انعكاسات هذه الهوية الخاصة به في مقاماته؛ ليتحدد بذلك الأثر الشخصي لابن ماري الذي يمكن أن نعده ملامح خاصة مميزة لمقاماته، وفارقة لها عن غيرها من سائر المقامات.
- تجلى المكون الأول المميز لشخصية ابن ماري خلال مقاماته في مسيحيته؛ فعلى الرغم من امتياحه من الثقافة العربية الإسلامية السائدة ؛ لكن نصرانيته تبدت واضحة من خلال استمداده من التراث المسيحي اليهودي ؛حيث استحضر المؤلف أنبياءه ورسله وأماكنه المقدسة، وظهر ذلك في المقامات : الرومية ، ومقامة أديرة الشام ، والمقامة السرنديبية، والمقامة العسقلانية ، والمقامة الطائفية .
- تجلى المكون الأخير المميز لشخصية ابن ماري خلال مقاماته في توظيف الطب من أجل الكدية والحيلة ، واستعراض علمه بالطب بمجالاته المتعددة، وارتباطه بعلوم الأوائل ، وكذلك أعلامه. وظهر ذلك واضحا في المقامات : الدمشقية ،والمقامة الإثمدية ، والمقامة المشانية ، والمقامة الأفريقية ،ومقامة دار السلام ،والمقامة البابلية ، ومقامة ميافارقين .

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : المصادر:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس .
- أحمد بن حنبل ، المسند، تحقيق السيد أبو المعاطي النوري وآخرين ــ بيروت ، عالم الكتب ، ط ١، ١٩٩٨.
- ابن أبي أصيبعة ، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط٢ ، تحقيق ودراسة د عامر النجار، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٠.
- البخاري ، صحيح البخاري بشرح الكرماني، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي ، ط ٢ ، ١٩٨١ .
- بديع الزمان الهمذاني ، المقامات ، شرح وتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، دار الطلائع للنشر والتوزيع ، ٢٠١١ .
- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، د.ت.
- الثعالبي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيرت ، لبنان، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م.
- الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١.
- حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق محمد شرف الدين ،بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت .
- الحريري ، مقامات الحريري ، القاهرة ، مكتبة التقوى ،ط ١ ، ٢٠٢١،
- الراغب الأصفهاني ،كتاب المفردات في غريب القرآن ، تحقيق مصطفى بن العدوي، المنصورة ، مكتبة فياض، ٢٠٠٩ .
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، القاهرة ، مكتلة الخانجي، ط١ ، ٢٠٠٠
- الشابشتي أبوالحسن علي بن محمد ، كتاب الديارات ، تحقيق كوكيس عواد، بيروت ، دار الرائد العربي، ط ٣، ١٩٨٦ .

- القفطي الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، علق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ،بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ٢٠٠٥.
- ابن ماري ، يحيي بن سعيد البصري ، مقامات ابن ماري، تحقيق عدنان كريم رجب المفرجي، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٩ .
- المتنبي ، الديوان، بشرح البرقوقي، القاهرة ، مؤسسة هنداوي ، ط ١ ، ٢٠١٤ .
- ابن المعتز أبوالعباس عبد الله، كتاب البديع ، شرح وتحقيق عرفان مطرجي، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١ ، ٢٠١٢،
- ابن منظور، لسان العرب ، تحقيق عبدالله الكبير وآخرين ، القاهرة ، دار المعارف .
- الميداني أبوالفضل أحمد بن محمد النيسابوري ، مجمع الأمثال ،الأستانة، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة ،١٣٥٥ هـ .
- أبونواس، الديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة، مطبعة مصر،١٩٥٣.
- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٣ .
- اليوسي أبوعلي نور الدين ، زهر الأكم في الأمثال والحكم ، تحقيق محمد حجي،ومحمد الأخضر، الدار البيضاء ، الشركة الجديدة ،ودار الثقافة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ م.

ثانيا المراجع :

- أوليري دي لاسي ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، نقله إلى العربية إسماعيل البيطار، بيروت ،دار الكتاب اللبناني، د.ت ، د.ط.
- برنس جيرالد ، قاموس السرديات ، ترجمة السيد إمام ، القاهرة ، دار ميريت ، ط١ ، ٢٠٠٣.
- بوزوروث كليفورد ، وحسن نافعة ، ترجمة حسين مؤنس ، إحسان صدقي العمد، مراجعة فؤاد زكريا، العدد ٢٣٤ ، ١٩٨٨، عالم المعرفة ، الكويت ، ج ٢ .
- البياتي صدام جاسم محمد ، إسهامات العلماء في تطور علم الطب في بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي ، دراسة تاريخية ، العراق ، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية ، ع٣ ، ٢٠١٨.
- حسن بحراوي ، الترجمة العربية من مدرسة بغداد إلى مدرسة طليطلة ،الرياض، كتاب المجلة العربية رقم ٢٣٩ ، ١٤٣٧هـ.

- حميد لحمداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، ط ١ ، بيروت ، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١ .
- طه عبد الله عفيفي. من وصايا الرسول ،القاهرة ، دار التراث العربي،١٩٨١ مج ١.
- فييه جان موريس ، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، نقله إلى العربية حسني زينة ،بيروت، دار المشرق ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠.
- قنواتي جورج شحاته ، المسيحية والحضارة العربية، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ، د .ت.
- لؤي سلمان راضي، وعبد علي عبيد علي، المقامة العراقية من نصوص المقامات المسيحية لابن ماري، دراسة وتحقيق ، مجلة واسط للعلوم الإنسانية ، العدد١٣ .
- لوبون جوستاف ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ،القاهرة ، طبعة الحلبي، ١٩٤٥ .
- مجدي وهبة ،وكامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢ ، بيروت، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ .
- محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، أيام العرب في الجاهلية، بيروت ، منشورات المكتبة العصرية ، دت.
- المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية، تصدير إبراهيم مدكور ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، مجمع اللغة العربية ،١٩٨٣ .
- ميتز آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة، ج ١، ٢٠١٣ .

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٢٦٨١
٢-	Abstract	٢٦٨٢
٣-	المقدمة	٢٧٣٩
٤-	التمهيد	٢٧٤١
٥-	الفصل الأول: تأثير الهوية المسيحية لابن ماري	٢٧٤٧
٦-	المقامة الرومية	٢٧٤٧
٧-	مقامة أديرة الشام	٢٧٥٤
٨-	المقامة السرنديبية	٢٧٦٠
٩-	المقامة العسقلانية	٢٧٦٧
١٠-	المقامة الطائفية	٢٧٧٩
١١-	الفصل الثاني : المقامات الطبية	٢٧٨٦
١٢-	المقامة الدمشقية	٢٧٨٦
١٣-	المقامة الإثمدية	٢٧٩٤
١٤-	المقامة المشانية	٢٨٠٠
١٥-	المقامة الافريقية	٢٨٠٤
١٦-	مقامة دار السلام	٢٨١٠
١٧-	المقامة البابلية	٢٨١٦
١٨-	مقامة ميافارقين	٢٨٢٣
١٩-	الخاتمة	٢٨٢٩
٢٠-	قائمة المصادر والمراجع	٢٨٣٠
٢١-	فهرس الموضوعات	٢٨٣٣

تم بحمد الله